دار البشير - القاهـرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادى الزراعى ص.ب ١٦٩ المعادى ت : ٥٢٤٢٦٨٧
٥٢٥٢٣٩٠

الشيخ عبد الحميد كشك

حوار بين الحق والباطل

دار البشير
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

(الآية ٤١ من سورة إبراهيم)

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(الآية ٢٨ من سورة نوح)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين .. الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً .

وبعد .. فقد جاء في هذا الكتاب من الدروس القرآنية ما فيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فقد جاء فيه ما بيّنه الله من سنن لا تختلف ولا تتخلف في تأديب الجبابرة وكيف لا يصح إلا الصحيح **﴿ فأمّا الزَّبدُ فيذهبُ جُفاءً وأمّا ما ينفعُ النّاسَ فيمكثُ فى الأرضِ ﴾** (الرعد : ١٧)

﴿ قُلْ إن ربى يَقْذفُ بالحقّ علامُ الغيوبِ * قُلْ جاءَ الحقُّ وما يُبدىء الباطلُ وما يُعيد ﴾ (سبأ : ٤٨ ، ٤٩)

وقد أردت بهذه الموضوعات أن تكون درساً لكل من غرّته قوته وسلطانه على ظلم العباد ، فنسى قوة العزيز الجبار من فوقه **﴿ ولاَ تحسَبَنَّ اللّهَ غافلاً عمّا يعملُ الظّالمون إنما يؤخرُهُم ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصارُ ﴾** (إبراهيم : ٤٢)

فيا مَنْ غرّته قوته : لماذا استحكمت فيه شهوته ويا من غره غناه .. ارزق عباد الله يوماً واحداً .. والله اسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً صواباً لا رياء فيه ولا سمعة ، والله لا يقبل عمل العبد إلا إذا كان خالصاً لوجهه ، وهو العليم بالنيات ، وهو المستعان وعليه التكلان .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ أَلَم تَرَ أنَّ اللَّهَ أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأخرجنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلوَانُهَا ، وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مُختَلِفٌ أَلوَانُهَا وغَرَابِيبُ سُودٌ * ومِنَ النَّاسِ والدَّوابِّ والأنعَامِ مُختَلِفٌ أَلوانُه كَذلك ، إنما يَخشَى اللهَ مِنْ عِبادِه العُلَماءُ ، إنَّ اللهَ عزيزٌ غَفُور ﴾

(فاطر : ٢٧ ، ٢٨)

براهين قاطعة

﴿ وَفِي الأرضِ آياتٌ لِلمُوقِنِين * وَفِي أنفُسِكُمْ أفلا تُبصِرون ﴾

(الذاريات : ٢٠ ، ٢١)

صدقت ربنا .. فقولك الحق ، وما من يوم ينشق فجره إلا ويطالعنا العلم بحقائق بالغة فى قوتها ، تثبت وتدل على أن كل ما فى الكون دليل على عظمة الخالق ، وقدرته وإرادته ، ولقد كانت وما زالت وستظل الكشوف العلمية تميط اللثام وتكشف النقاب عن آيات الله فى كونه .

قال الدكتور عناية الله المشرقى ، وهو من أعظم علماء الهند فى الطبيعة والرياضيات ، ويتمتع بشهرة كبيرة فى الغرب ، لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة ، وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية _ قال :

خرجت من بيتى لقضاء حاجة ما وكان ذلك يوم الأحد من أيام سنة ١٩٠٩ فإذا بى أرى الفلكى المشهور السير جيمس جينز الأستاذ بجامعة كمبردج _ فدنوت منه ، وسلمت عليه ، فسألنى : ماذا تريد منى ؟ فقلت له : إن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر ، فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور ، وتوقف لحظة ثم قال : عليك أن تأخذ شاى المساء عندى .

وعندما وصلت إلى داره فى المساء ، خرجت ليدى جيمس فى تمام الساعة الرابعة بالضبط ، وأخبرتنى أن السير جيمس ينتظرنى ، وعندما دخلت عليه فى

الغرفة وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاى .

وكان البروفيسور منهمكاً فى أفكاره ، وعندما شعر بوجودى ، سألنى : ماذا تريد ؟ ودون أن ينتظر ردى ، بدأ يلقى محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ، ونظامها المدهش ، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية ، وطرقها ومداراتها وجاذبيتها ، وطوفان أنوارها المذهلة ، حتى إننى شعرت بقلبى يهتز بهيبة الله وجلاله .

وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً ، والدموع تنهمر من عينيه ويداه ترتعدان من خشية الله ، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول :

« ياعناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الإلهى ، وعندما أركع أمام الله وأقول له : « إنك لعظيم » أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذا الدعاء ، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين ، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة ، أفهمت .. يا عناية الله خان ؟

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً فى عقلى وقلت له : يا سيدى لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التى رويتموها لى ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من كتاب الله فلو سمحتم لى لقرأتها عليكم فهز رأسه قائلاً : بكل سرور فقرأت عليه الآية التالية :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأخرجنا به ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها ، وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وغَرابِيبُ سُودٌ * ومن النَّاسِ والدَّوابِّ والأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُه كذلكَ ، إنما يخشى اللهَ مِنْ عِبادِه العلماءُ ، إن اللهَ عزيزٌ غفُور ﴾ (فاطر : ٢٧ ، ٢٨)

فصرخ السير جيمس قائلاً : ماذا قلت ؟ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِه العلماءُ ﴾ مدهش وغريب وعجيب جداً !!

إن الأمر الذى كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة من أنبأ محمداً به ؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك .. فاكتب شهادة منى أن القرآن كتاب موحى به من عند الله .

ويستطرد السير جيمس قائلاً : لقد كان محمد أمياً ، ولا يمكنه أن يكتشف عن هذا السر بنفسه ولكن الله هو الذى أخبره بهذا السر .. مدهش وغريب وعجيب جداً !!

فهذا عالم من أشهر علماء الفلك يدلى بشهادته فى ساحة القضاء وفى قضية من أهم القضايا فى الاسلام إنها قضية العقيدة ، إنها أشرف قضية فى هذا الوجود قضية الإقرار لله تعالى بالوحدانية ، ولرسوله ﷺ بالرسالة ، فجل جلال الله .. هو الذى أبدع هذا الكون وصوره وجعله صفحة رائعة ، تجلت عليها صور الجلال والجمال والكمال .

تلك الطبيعةُ قِفْ بنا يا سارى	حتى أُريكَ بديعَ صُنْعِ البارى
الأرضُ حولكَ والسماءُ اهتزَّتَا	لِــروائعِ الآيــاتِ والآثــارِ
مَنْ شكَّ فيه فنظرةٌ فى خلْقِه	تـمحو أثيمَ الشكِّ والإنكارِ

إن قيام هذا الكون على هذا النظام البديع لأقوى دليل على أن له خالقاً حياً عليماً مريداً قادراً سميعاً بصيراً ﴿ ليس كَمِثْلِه شيءٌ ﴾ (الشورى : ١١)

﴿ لا تُدْرِكُه الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصارَ ﴾ (الأنعام : ١٠٣)

ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار ، أجمع أهل العلم والمعرفة أن هذا الكتاب المنزّل على محمد ﷺ حق مطلق ، وصدق مطلق ﴿ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِه تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حَميدٍ ﴾ (فصلت : ٤٢)

قال المستر (براون) أحد رجال البحرية البريطانية لعالم مسلم من علماء الهند : هل ركب نبيكم محمد البحر ؟

قال له : لا .

قال : فمن الذى علّمه علوم البحار ؟

قال له العالم المسلم : فماذا تريد من سؤالك هذا ؟

قال المستر براون : لقد قرأت فى كتاب الإسلام آية لا يعرف أعماق ما فيها

إلا مَنْ أوتى علماً واسعاً فى علوم البحار ، ثم قرأ عليه قوله تعالى ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بعض إذا أخرجَ يدهُ لم يكَدْ يَرَاهَا ﴾ (النور : ٤٠)

ثم عقب قائلاً : فإذا كان محمد لم يركب البحر ، ولم يتلق علوم البحار على أيدى أساتذة متخصصين ، ولم يختلف إلى جامعة أو معهد ، بل كان أمياً ، فمن الذى علّمه هذا العلم النافع ؟ إلا أن يكون وحياً صادقاً من خالق الكائنات ، فأشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وهكذا اهتدى هذا العالم إلى طريق الحق والنجاة ، لأنه وقف أمام محراب مقدس لآية فى كتاب رب العالمين .

فَوَاعجباً كيف تعصى الإلهَ ... أم كيفَ يجحدُه الجاحدُ

وفى كُلِّ شىءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه الواحدُ

إن الصدفة لا محل لها فى هذا الكون .. هذه حقيقة لا يعقلها إلا العالمون ، ونحن على ذلك من الشاهدين ، لأن الصدفة العمياء لا توجد نظاماً ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين ﴾ (المؤمنون : ١٤)

* * *

المصير المحتوم

قوله تعالى ﴿ وسخّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجرى لأجلٍ مُسمّى ﴾ (الرعد : ٢)

هذا مصير لا مفر منه ، وغاية لا بُدَّ من الوصول إليها ، فكل ما فى الكون يتوجه إلى غاية معلومة ومصير معين .

فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء .

وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء .

وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء .

ولقد قدّر الله فى سابق علمه الأزلى لهذا الكون أجلاً لا ريب فيه قال سبحانه ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أنتم تَمْتَرُونَ ﴾ (الأنعام : ٢)

كما قال جل جلاله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (الإسراء : ٩٩)

ومن عجائب القرآن الكريم أن يعبر بهذا اللفظ الموحى بدلالات بعيدة المدى ﴿ كُلٌّ يجرى ﴾ .. لم يقل يمشى أو يسير أو يتحرك إنما يجرى ، مما يفيد أن حركة الكون سريعة وأن هذا الكون سرعان ما يلف فى أكفان القدر ، ويطويه

القوى العزيز ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ والسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بيمينه ﴾ (الزمر : ٦٧)

وقد صرح القرآن العظيم بتلك الغاية المحتومة فى قوله جل شأنه ﴿ ألم تَرَ أنَّ اللهَ يُولِجُ الليلَ فى النهارِ ويُولِجُ النهارَ فى الليل ، وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجرى إلى أجلٍ مُسمًّى وأنَّ الله بما تعملون خبير ﴾ (لقمان : ٢٩)

ففى حرف الجر ﴿ إلى ﴾ ما يفيد الغاية وقد يأتى ذلك الأجل بعد اللام التى تفيد العلة .

قال سبحانه فى سورة (فاطر) : ﴿ يُولِجُ الليلَ فى النهارِ ويُولِجُ النهارَ فى الليلِ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجرِى لأجلٍ مُسمًّى ، ذَلِكُمُ اللهُ ربُّكُمْ لَهُ المُلْكُ ﴾ (فاطر : ١٣)

كما قال فى سورة الزمر ﴿ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بالحقِّ يُكوِّرُ الليلَ على النهارِ ويُكوِّرُ النهارَ على الليلِ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجرى لأجلٍ مُسمًّى ألا هُوَ العزيزُ الغفار ﴾ (الزمر : ٥)

وبنظرة دقيقة تلمح اقتران الليل والنهار ، وإيلاجهما بالشمس والقمر ، وجريهما إلى غاية محدودة ، لأن الليل والنهار مطيتان يسيران بنا إلى أجل أجَلَّه الله وغاية حددها .

نموتُ وأيامُنا تذهبُ ... نلعبُ والموتُ لا يلعبُ
عَجِبْتُ لذى لَعِبٍ قد لَهَا ... عجبتُ وما لِىَ لا أعجب
أيلهو ويلعبُ مِنْ نفسه ... تموت ومنزله يَخْرَبُ
أرى الليلَ يطلبنا والنهار ... ولم أدرِ أيهما أطلبُ
أحاطَ الجديدان جَمْعاً بنا ... وليس لنا منهما مَهْرَبُ
وكلٌّ له مُدَّةٌ تنقضى ... وكلٌّ له أثر يُكْتَبُ

لقد أكد الله تعالى هذه الغاية ، وتلك النهاية ، ثم رتب عليها الحكمة

البالغة فى قوله جل شأنه :

﴿ إنَّ السَّاعةَ آتيةٌ أكادُ أُخفيها لِتُجزَى كُلُّ نَفْسٍ بما تسعَى ﴾ (طه : ١٥)

وحذر تحذيراً شديداً الذين يصدون عنها ، ويتبعون الهوى ، فتكون العاقبة الردى والهلاك قال سبحانه : ﴿ فَلاَ يصدَّنَّكَ عنها مَنْ لا يؤمنُ بها واتَّبعَ هَوَاهُ فتَرْدَى ﴾ (طه : ١٦)

لقد أوجب الله الوجود لذاته ، وكتب الفناء على كل مخلوقاته ، ليُبعثوا فى يوم يقول فيه الحاكم العادل :

﴿ ونَضعُ الموازينَ القسطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً وإنْ كانَ مثقالَ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ أتينا بها وكَفَى بنا حاسبين ﴾ (الأنبياء : ٤٧)

ومن ثَمَّ فالكل يجرى ويتحرك حركة سريعة إلى غاية ونهاية لا بد فيها من لقاء الله تعالى . وقد بيَّن الله تعالى تلك الغاية فى قوله : ﴿ يُدبِّرُ الأمرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بلقاءِ ربِّكُمْ تُوقنون ﴾ (الرعد : ٢)

وتدبير الأمر علم عواقب الأمور وأدبارها وما تؤول إليه ، وتلك خاصية من خصائص الألوهية قال تعالى : ﴿ يُدبِّرُ الأمرَ مَا مِنْ شَفيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إذنِه ﴾ (يونس : ٣)

وقال سبحانه ﴿ يُدبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليهِ فى يومٍ كانَ مقدارُهُ ألفَ سنةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذلكَ عالمُ الغيبِ والشهادةِ العزيزُ الرحيمُ ﴾ (السجدة : ٥ ، ٦)

من هنا نعلم علم اليقين أن مالك الأمر هو الله .

فإذا ضاقت عليك الدنيا فقل : يا الله .

وإذا احتدمت أمامك الأمور فقل : يا الله .

وإذا ادلهمت الخطوب فقل : يا الله .

وإذا مرضت فقل : يا الله .

وإذا سألت فاسأل الله .

وإذا استعنت فاستعن بالله .

وإذا توكلت فتوكل على الله .

وإذا نمت على فراش الموت فقل : يا الله .. وقل : إن الأمر كله لله .

﴿ ولله غيبُ السموات والأرضِ وإليه يُرجعُ الأمرُ كلُّهُ فاعبُدْهُ وتوكَّلْ عليه وما ربُّكَ بغافلٍ عمَّا تعملُونَ ﴾ (هود : ١٢٣)

قوله جل شأنه : ﴿ يُفصِّل الآيات ﴾ سواء أكانت آيات متلوة أو مبثوثة في الكون ، والآفاق والأنفس ، وقد صدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وكُلَّ شيء فصَّلْناهُ تفْصيلاً ﴾ (الإسراء : ١٢)

ثم تأتي النتيجة وتتضح الغاية في قوله تبارك اسمه :

﴿ لعلكُمْ بلقاءِ ربكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (الرعد : ٢)

ليس بعد ذلك أدنى شكٌ في أن الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، وأن العمر مهما طال فلا بد من دخول القبر .

﴿ وهُوَ الذى يتوفَّاكُم بالليلِ ويعْلَمُ ما جرَحتُم بالنهارِ ثُم يبعثُكُمْ فيه ليُقْضى أجَلٌ مُسمًّى ثُم إليه مرْجعكُمْ ثم ينبئكُمْ بما كُنتُمْ تعْمَلُونَ * وهُو القاهرُ فوقَ عباده ويُرسلُ عليكُمْ حفظةً حتَّى إذا جاءَ أحدكُمُ الموتُ توفَّتهُ رُسُلُنا وهُم لا يُفرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إلى اللهِ مولاهُمُ الحقِّ ألا لَه الحكْمُ وهُو أسرعُ الحاسبينَ ﴾ (الأنعام : ٦٠ ـ ٦٢)

وهكذا قامت الأدلة الصادقة على أن لقاء الله حق .

﴿ ومَا خلَقْنا السَّماواتِ والأرْضَ وما بيْنهُمَا إلاَّ بالحقِّ وإنَّ السَّاعةَ لآتيةٌ فاصفحِ الصَّفحَ الجميلَ ﴾ (الحجر : ٨٥)

ما في الحياة بقاءٌ — ما في الحياة ثُبوتُ
نبني البيوتَ وحتماً — تنهارُ تلك البيوتُ
تموت كُلُّ البرايا — سبحان مَنْ لا يموتُ

فاعلم أيها العاقل أنه لابد لك من قرين يُدفَنُ معك وهو حيٌّ ، وتدفن معه وأنت ميت ، إن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً خذلك ، فاجعله صالحاً فإنه عملك .

﴿ واستَمعْ يوْمَ ينادِ المُنادِ من مكانٍ قريبٍ * يوْمَ يسمعُونَ الصَّيحةَ بالحق ذلكَ يوْمُ الخروجِ * إنَّا نحنُ نُحيِي ونُميتُ وإليْنا المصيرُ ﴾ (ق : ٤١ ـ ٤٣)

فاللهم أحسن الختام ، وتقبَّل الأعمال ، واسترْ عوراتنا وآمنْ روعاتنا ، واجعل خير أيامنا يوم لقائك .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائقةُ المَوتِ وإنما تُوفَّوْنَ أُجُورَكُم يوْمَ القيامة فَمَنْ زُحْزِح عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجنةَ فَقَدْ فازَ وما الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرُورِ ﴾

(آل عمران : ١٨٥)

قضايا موجبة كلية

لما قضى الله تعالى قضاءه المحكم أن يكون لهذا الخلق أجل مسمى وردت آيات الكتاب فى هذا المقام فى صورة قضايا موجبة لم يتقدمها نفى وكلية مسوّرة بالسور الكلى .

جاء في سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائقةُ المَوت وإنمَا تُوفَّوْنَ أُجُورَكُم يوْمَ القيامةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجنةَ فَقَدْ فَازَ وما الحَياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرُورِ ﴾ (آل عمران : ١٨٥)

فهذه قضية حكم الله فيها على كل نفس بأنها ستذوق الموت ، أى ستفارق بدنها ، وتتمثل بين يدى الله تبارك اسمه ، فلم يستثنِ من ذلك أحداً ، لأن الحكم كلىٌّ شامل لكل الأفراد التى تندرج تحته ، ولو كان هناك أحد كُتِبَ له الخلود لكان رسول الله ﷺ ، فهو أحب خلق الله إلى الله ، وأفضل مخلوق على الإطلاق ، لكن الله جلّتْ قدرته أطلعه على المصير المحتوم فى قوله ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (الزمر : ٣٠)

وقال له فى سورة الأنبياء : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِيْن مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُون * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وإلينا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء : ٣٤ ، ٣٥)

وجاء اليوم الذى نام فيه الصادق المصدوق على فراش الموت وأخذ يمسح وجهه بماء بارد ويقول : « سبحانَ اللّه إنَّ للموتِ لسكرات .. اللهم هوِّن على سكرات الموت » .

لقد أخبره الأمين جبريل بتلك الحقائق قال له : « يا محمد .. عِشْ ما شئت فإنك ميت .. واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به .. وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم بأن شرف المؤمن قيام الليل ، وعِزُّه استغناؤه عن الناس » .

ويوم علم الفاروق بأن هناك ناساً يقولون : إنَّ رسول الله قد مات .. وقف يزمجر زمجرة الضياغم فى بطون الغاب ، وقد امتشق الحسام وأخذ يزأر زئير الأسد الجريح ، ويصيح :

مَن قال إن رسول الله قد مات ضربتُه بسيفى هذا ، إنه قد ذهب إلى ربه وسيعود كما ذهب موسى أربعين ليلة ثم عاد .

وغشيت المسلمين غاشية ، ونزلت بهم الطامة الكبرى ، لولا أن الله تعالى وفق أبا بكر الصديق الذى دخل على رسولِ الله صلوات ربى وسلامه عليه وهو مسجًى ، فقبّله فى جبينه وقال له : طبت حياً وميتاً يا رسول الله ، أما الموتة التى كتب الله فقد ذقتها ، ولن تذوق الموت بعد ذلك .

وخرج على المسلمين فى رسُوخ الجبال وشُموخها ، خرج باذخاً عملاقاً كالرواسى الشامخات ، يعلن فى المسلمين هذا النبأ فى كلمات تضىء كأنها الفجر ، وتشرق كأنها الشمس فى ضحاها ، وتنير كأنها القمر إذا تلاها ، وتتألق كأنها النهار إذا جلاّها .

قال فى صبر المؤمن ويقين صاحب العقيدة الراسخة :

أيها الناس .. مَنْ كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات ، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت .

ثم تلا قوله تعالى : **﴿ وما محمَّدٌ إلاّ رسُولٌ قد خلَتْ من قبله الرُسلُ أفإينْ ماتَ أو قُتل انقلبتُم على أعقَابكُمْ ومن ينْقلبْ على عقبيه فلَنْ يضُرَّ اللهَ شيئاً وسيجزِى اللهُ الشاكرين ﴾** (آل عمران : ١٤٤)

ونزلت هذه الآية على قلوب المسلمين بالسكينة والوقار ، كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى فانفسحت لها الصدور ، وانشرحت فتمكنت فى القلوب أفضل تمكن .

لقد نزلت كالغيث على أرض اشتاقت إلى الماء فأثمرت اليقين الراسخ ، والوقار الرزين ، فهدأت النفوس واطمأنت ، وإذا عمر بعد سماع القرآن يهدأ كأنه العصفور الوديع وهو الذى كان من قبل كالليث الرئبال حتى قال :

(جزاك الله خيراً يا أبا بكر .. لكأنى لم أسمع هذه الآية إلا الآن) .

إنهم خريجو مدرسة محمد .. إذا رأوا الحق انقادوا وأذعنوا له دونما مكابرة ، أو صلف أو جدل عقيم ، إنهم تربوا على يدى أعظم الرجال ..

﴿ مُحمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والذينَ معَهُ أشداءُ علَى الكُفَّارِ رُحَماءُ بينهم تراهُمْ رُكعاً سُجَّداً يبتغُونَ فضلاً منَ اللهِ ورِضْواناً سيماهُمْ فى وُجُوهِهِم منْ أثرِ السُّجودِ ﴾ (الفتح : ٢٩)

إنَّ الصديق رضى الله عنه لمّا قرأ الآية الكريمة كان ناصحاً أميناً ، وموجهاً بليغاً ، إذ البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ولكل مقام مقال .

﴿ ومَا كَانَ لنفسٍ أن تمُوتَ إلا بإذن اللهِ كتاباً مؤجَّلاً ومَنْ يُرِدْ ثوابَ الدنيا نُؤتِه منها ومَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرة نُؤتِه منها وسَنجْزِى الشَاكرين ﴾ (آل عمران : ١٤٥)

هذه عقيدة المسلم .. إذا حلَّ القضاء وجب التسليم ، فقضاء الله لا يقابل بغير التسليم وليس له عدة سوى الصبر الجميل .

ولا بدَّ لنا من يوم يجمع الله فيه بين سلامة الأبدان وسلامة الأديان .

ولقد ألقى الله تعالى باللائمة على قوم استعملوا كلمة لو التى تفتح عمل الشيطان وكان عليهم أن يقفوا عند قوله جل شأنه **﴿ وَاللهُ يحكُمُ لا مُعقِّبَ لحكمِه ﴾** (الرعد : ٤١)

قال سبحانه : **﴿ وطَائفةٌ قدْ أهمّتهُمْ أنفسُهُمْ يظُنُّونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ**

الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾

(آل عمران : ١٥٤)

إذن فحال المؤمن دائماً خير .. إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر وليس ذلك إلا للمؤمن .. أما الذى يقابلون قضاء الله بالجزع والفزع فإنهم حرب على أنفسهم ، وعلى قلوبهم ، وعقيدتهم فلو ذكروا الله لاطمأنت القلوب ، وخشعت الأفئدة . ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (الرعد : ٢٨)

لقد شاء ربك وجلت مشيئته أنّ الذى ينعى رسول الله إلى الناس هو أعز الناس إليه وأحبهم وأقربهم إلى نفسه ، إنه أبو بكر الذى كانت بينه وبين المصطفى المحبة كلها والوفاء كله .

وهو الذى يعلن نبأ الوفاة ليلقن العالم درساً فى العقيدة وهو أن قضاء الله لا مجاملة فيه ، وأن الموت لا مساومة عليه ، فكل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا الله ذو العزة والجبروت .

لقد غلّب الفاروق العاطفة على العقل فلم يكد يرضخ لهذا النبأ الفادح فامتشق الحسام وأوعد وهدد ، ولكن الصدّيق غلّب العقل على العاطفة فأذعن وأعلن الحقيقة العليا . فكلاهما والحمد لله على خير لأنهما يقفان موقف الوفاء لخاتم الأنبياء ﷺ .

* * *

ومن تلك القضايا

من القضايا القرآنية الموجبة الكلية قوله تعالى فى سورة العنكبوت :

﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ (العنكبوت : ٥٧)

وقد تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما تعلم أن هذا الحكم النافذ الذى لا يقبل نقضاً ولا استئنافاً ، قد جاء بعد ما قصّ الله علينا فى هذه السورة قصص أقوام عتوا فى أنفسهم وظنوا أن هذه الأرض هم مالكوها المتصرفون فيها كيفما شاءوا .. فيأتى الحكم من الله تعالى قاطعاً جازماً حاسماً ، وفيه من التحدى ما فيه ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾

فمن ادعى منكم القوة والجبروت فليدرأ الموت عن نفسه وليؤخر الأجل إذا جاء .

﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ (الواقعة : ٨٣ ـ ٨٧)

إنه الجلال والهيبة والعظمة الإلاهية المطلقة .

﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾

إلى هذا المحتضر الذى يسلم الروح إلى الله ، والذى تحيطون به من كل

جانب ، هل تستطيعون أن ترجعوا الروح فلا تزاول مكانها .. هل تستطيعون أن تصنعوا له شيئاً ؟

هذا هو الحكم الذى قضى الله به على كل مخلوق .

﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ * وَالتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ (القيامة : ٢٦ ـ ٢٩)

إلى أين الذهاب والمصير ؟

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ ﴾ (القيامة : ٣٠)

عبدى رجعوا وتركوك ، وفى التراب دفنوك ، ولو ظلوا معك ما نفعوك ، ولم يبقَ لك إلا أنا ، وأنا الحى الذى لا يموت .

ثم تأتى العاقبة مصورة فى إبداع وإتقان فى قوله تعالى .﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

أى بعد هذا الطواف الطويل وبعد تسلسل الأحداث لابد من غاية ومن أجَل مُسمّى ، ولابد من الرجوع إلى الله لا إلى غيره ، كما أفاد ذلك تقديم الجار والمجرور فى النص الكريم ﴿ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

وفى التعبير بحرف (ثم) ما يفيد أنه مهما طال العمر وتطاول الزمان فلا مَفرّ من الرجوع إلى الله .. تلك حقيقة أشد ثباتاً من الجبال الشُّم والرواسى الشامخات .

نبكى على الدنيا وما من معشر	جمعتهمُ الدُّنيا فلم يتفرَّقوا
أين الأكاسرةُ الجبابرةُ الأولىَ	جَمعوا الكُنوز فما بَقِينا ومابقوا
مَنْ ذا الذى ضاقَ الفضاءُ بجيشه	حتى ثَوى فَحَواه لَحْدٌ ضَيِّقُ
خُرس إذا نُودوا كأنْ لم يعلموا	أنَّ الكلامَ لهم حَلالٌ مُطْلَقُ

إن الروعة تتجلى عندما تأتى آية الحكم بعد ذكر أقوام طغوا وبغوا ، وظنوا أنهم قادرون عليها ، من هؤلاء الأقوام الذين ورد ذكرهم فى سورة العنكبوت قوم نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وفيهم يقول المولى جل شأنه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ

عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (العنكبوت : ١٤، ١٥)

قفْ معى وقَلّب الفكر فى قوله جل شأنه .. ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ .. هذه مدة دعوته ولم يكن عمله ساعة من نهار ، أو ردحاً من اليوم كما لم يقُم بعطلة صيفية ، إنما كانت دعوته كما صورها العلى العظيم حكاية عن نوح :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ﴾ (نوح : ٥، ٦)

وإلام كان يدعوهم ؟

أكان يدعوهم إلى شر ؟ أو تمزيق صَفٍّ أو عداء أو بغضاء أو عنصرية ممقوتة أو عصبية منتنة ؟

لا .. ورب الكعبة .. لقد كان يدعوهم إلى ما يحييهم .. ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ (نوح : ٧)

حال عجيبة وشيء إدّ .. أرأيت كيف قابلوا الدعوة إلى الله فى طهرها ونقائها وصفائها وعليائها وبذوخها ورسوخها وشموخها ؟ جعلوا أصابعهم فى آذانهم فعطلوا حاسة السمع ، وهى منافذ المعرفة بل هى أولها ، ولذا قُدِّمت على البصر فى مثل قوله جل شأنه :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل : ٧٨)

ثم اعجب معى لهذا المجاز المرسل فى أقوى بيان وأبدع صورة ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ ﴾ مع أن الآذان لا تتسع للأصابع ، والمقصود هنا بعض الأنامل ، ولكن التعبير جاء بالأصابع ليفيد أنهم أرادوا أن يتمكنوا كل التمكن من عدم سماع أية كلمة يدعوهم بها نوح إلى الله ، فكأنهم جعلوا الأصابع نفسها ، وكلها لا بعضها فى الآذان خشية أن تتسلل كلمة إلى حاسة السمع .

أما الأبصار فقد استغشوا ثيابهم ، وغطوها تغطية كاملة ، وفى قوله تعالى : (استغشوا) دون (غشوا) ما يفيد أنهم ليتمكنوا من عدم الرؤية والنظر إلى نوح كأنهم طلبوا الأغطية نفسها لتقوم بهذا الحجاب المستور ، إذ إن السين والتاء تفيدان الطلب .

فهذا هو السمع وذاك هو البصر ، سدت منافذ المعرفة وأحاطوها بأسوار منيعة ، حتى لا تتمكن الدعوة من اقتحامها فصاروا بذلك صماً وعمياً فما حال القلوب ؟

قال تعالى (وأصروا) أى صمموا على عدم قبول الحق . وهل الإصرار إلا عمل من أعمال القلوب وقد زادوا الإصرار عتوا ونفوراً ، فاستكبروا استكباراً ، وهل الكبر إلا بطر الحق وغمط الناس .

يا مدعى الكبر إعجاباً بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهمو ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً ... أقصر فإنك مأكول ومشروب

لقد مكث نوح يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ما ترك وسيلة فى الدعوة إلا سلكها ، وما ترك حصناً إلى الوصول إلى الحق إلا اقتحمه ، وما ترك حالاً من الأحوال إلا وقف يدعو .

قال تعالى على لسان نبيه .. ﴿ ثُمَّ إنى دعوتُهم جهاراً * ثُمَّ إنى أعلنتُ لهم وأسررتُ لهم إسراراً ﴾ (نوح : ٨ ، ٩)

جهر وإعلان وسر ، وحسب مقتضيات الأحوال فلكل مقام مقال ، والبلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، لقد أراد أن يلين القلوب لخشية الله حتى تخشع لذكر البارى جل جلاله وما نزل من الحق .

﴿ فقلتُ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ (نوح : ١٠ ـ ١٢)

فماذا كانت النهاية ؟ وإلى أى مصير سارت الغاية ؟

قال سبحانه وتعالى :

﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ (هود : ٣٦)

إن الله تعالى أخبر إنه ما آمن مع نوح إلا قليل ، إنها قلوب تحجرت فلو وزعت قسوتها على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد من المخلوقات .

﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ (النبأ : ٢٧ ، ٢٨)

لقد جاء الترهيب بعد الترغيب ، ونار الوعيد بعد نور الوعد .

﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً ﴾ (نوح : ١٣ ، ١٤)

وجاءت الأدلة دامغة والحجج ساطعة .

فكيف كان المصير ؟

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أفِي اللّه شَكٌ فَاطِرِ السّمَوات والأرضِ يَدْعُوكُم لِيغفرَ لَكُمْ مِنْ ذُنوبِكُمْ ويُؤَخرَكُم إلى أجَلٍ مُسَمّى قَالُوا إنْ أنتم إلاّ بَشرٌ مثلُنَا تُريدُونَ أنْ تَصدُّونا عمّا كَانَ يَعبُدُ آباؤُنَا فأْتونا بِسُلْطَانٍ مُبِين * قَالَتْ لَهُم رُسلُهُمْ إنْ نَحنُ إلا بَشرٌ مثلُكُمْ ولكنّ الله يَمُنُّ على مَنْ يشاءُ من عِبَاده ومَا كَانَ لنَا أنْ نَأتيكُمْ بسُلْطَانٍ إلا بإذْنِ اللّه وعَلَى اللّه فَلْيَتوكّلِ المُؤمنُون * ومَا لنَا ألاّ نَتوكّلَ عَلى اللّه وقَد هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنصبِرَنّ عَلَى مَا آذَيتمُونَا وعلى اللّه فَلْيتوكلِ المتوكّلُونَ ﴾

(إبراهيم : ١٠ ـ ١٢)

ماذا قالوا بعد بيان الحق

عرضنا للرسالة الرفيعة التى بلّغها شيخ الأنبياء نوح لقومه ، فقد أخبرهم أنه لهم نذير مبين ، وأمرهم أن يعبدوا الله وحده ، ونهاهم أن يشركوا به شيئاً فماذا كان جواب قومه ؟

إنك لتأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب وأنت تستمع إلى ما قاله أهل الباطل لدعاة الحق .

يقول جل شأنه فى سورة هود :

﴿ فَقَالَ المَلأُ الذينَ كَفَرُوا منْ قَومه مَا نَرَاكَ إلا بَشراً مثلَنَا ومَا نَرَاكَ اتبعَكَ إلاّ الذينَ هُمْ أراذِلُنا بَادِئَ الرّأيِ ، ومَا نرى لكُمْ علينَا منْ فَضلٍ بلْ نَظنّكُمْ كَاذِبين ﴾ (هود : ٢٧)

وفى سورة الشعراء يقول تعالى :

﴿ قَالُوا أنؤمنُ لَكَ واتبعَكَ الأرذَلُونَ ﴾ (الشعراء : ١١١)

إنهم قوم يهرفون بما لا يعرفون ، ويقولون مالا يعلمون ، ومن الخطأ بل من الخطايا ، أن يقول الإنسان مالا يعلم ، وأن يعلم قبل أن يتعلم ولا يخاف أن يأثم ، وإذا أثم لا يندم .

هكذا كان موقف الملأ ، إنهم كبار القوم وأشرافهم الذين يملأون العيون

[illegible]

[illegible]

فالحق هو الحق لا يتجزأ ، لا يقبل المساومة وأنصاف الحلول .

إن الميزان الذى يزن به هو قوله تعالى :

﴿ يَا أيها النَّاسُ إنَّا خلقناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتعارفوا إنَّ أكرمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتقاكُم إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣)

نعم يارب العزة .. (إن أكرمَكُمْ عِنْدَ الله أتقاكُم) لا أغناكم ، ولا أقواكم ولا أحسبكم ولا أشرفكم ولا أوجهكم .

النَّاسُ من جهة التصوير أكْفَاءُ   أبـوهـم آدمُ والأمُّ حَـوَّاءُ
فإنْ يكُنْ لَهُمو فى أصلهم شَرَفٌ   يتفـاخـرُون بـه فالطيـنُ والمـاءُ

وهل الطين إلا تراب اختلط بالماء ﴿ وَمِنْ آياتِه أنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون ﴾ (الروم : ٢٠)

﴿ وَهُـوَ الـذى خَـلَـقَ مِـنَ المَـاءِ بَشَـراً فَجَعَـلَـهُ نَسَـبـاً وَصِـهْـراً وَكَـانَ رَبُّكَ قديراً ﴾ (الفرقان : ٥٤)

﴿ هُوَ الـذى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أجَلاً وَأجَـلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُم أنْـتُـم تَمْتَرُون ﴾ (الأنعام : ٢)

فَلِمَ الفخرُ بالأحساب والطعن فى الأنساب ؟

قيل لبلال رضى الله عنه : يا بلال مَن أبوك ؟ وكان عبداً حبشياً . فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة .

نعم كلكم لآدم وآدم من تراب . وهل نتفاخرُ فى دار فانية زائلة ، أولها بكاء وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، وميت الغد فيها يُشيع ميت اليوم .

لاَ تـركنَنَّ إلى القُصـورِ الفاخـرة   واذكُرْ عظامَكَ حين تُمسى ناخرة
وإذا رأيـتَ زخـارفَ الـدنيا فقُـلْ   يارب إنَّ الـعيشَ عيشُ الآخـرة

لقد كان الجواب عملياً فقد رأوا الرسول قد بسط رداءه للفقراء وحياهم قائلاً : « مرحباً بمن أوصانى ربى بهم خيراً » .

* * *

شيخ الأنبياء

﴿ فأنجيناهُ وَأصْحَابَ السَّفينة وَجعلْناهَا آيةً للْعالمين ﴾ (العنكبوت : ١٥)

نعم ﴿ فَاصْبِرْ إنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود : ٤٩)

ثم ﴿ نُنَجِّى رُسُلَنَا والذين آمَنُوا كَذلكَ حقًا علينا نُنجِ المؤمنين ﴾ (يونس : ١٠٣)

هذا وَعْدٌ من الله تعالى ولن يخلف الله وعده .

لقد جاءت آية النجاة معبرة فى أروع صورة ، فى أعلى طبقات البلاغة ، وفى أرفع مستوى من البيان ، ركزت قصة النجاة فى إيجازٍ بليغ وجيز لأن النجاة قد تمت بأمر الله ، فى أقل من لمح البصر ، فسبحان من إذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون . ولقد جاءت الآيات تفصّل هذا الموقف المهيب ، والمشهد الرهيب فى سورة هود .

ولقد تحرك الزحف المقدس يحدثنا عن قصة شيخ الأنبياء نوح ، ولم يكن هذا القصص مجرد قصة تُروى ، أو رواية تُقصّ ، إنما ليكون فيه العبرة والعظة .

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأبصَارِ ﴾ (الحشر : ٢)

بدأت الآيات الكريمة زحفها المقدس بقوله جل شأنه : ﴿ وَلَقَدْ أرسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِـهِ إنّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أنْ لا تَعْبُـدُوا إلاَّ اللهَ إنى أخافُ عليكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أليم ﴾ (هود : ٢٥ ، ٢٦)

هذا عرض طيب لدعوة إلاهية كريمة كان المنطق السديد والرأى الرشيد ،

[illegible]

ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار وهو الواحد القهار .

قيل لسفيان الثورى رضى الله عنه : ما الدليل على وجود الله ؟

فأجاب فى إيجاز وجيز .. ولفظ معجز : ومتى غاب سبحانه حتى تسألوا عن وجوده ؟

آمن به المؤمن ولم يرَ ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .

فوا عجباً كيف تَعْصى الإلـهَ ... أم كيفَ يجحـدُه الجاحـدُ
وفـى كُـلِّ شـيء لَـهُ آيـةٌ ... تـدلُّ علـى أنـه الـواحـدُ

فمن كان على قلبه ختم ، وعلى بصره غشاوة ، فعليه بعروق الإخلاص ، وورق الصبر وعصير التواضع ، فليضع ذلك فى إناء التقوى ، ويصب عليه ماء الخشية ، ويوقد عليه بنار الحزن ، وليصفّه بمصفاة المراقبة ، ويتناوله بكف الاستغفار ، ويشربه من كأس التقوى ، وليتمضمض بالورع ، وليبعد نفسه عن الحرص والطمع ، فإنه يشفى من مرضه بإذن الله .

إن نوحاً عليه السلام قال بلسان الناصح الأمين ومنطق الحق المبين :

﴿ إنِّى أخافُ عليكُمْ عذابَ يَوْمٍ أليم ﴾ (هود : ٢٦)

فهل الذى يخاف علي قومه يستهدف من وراء ذلك رئاسة أو وجاهة أو حكماً أو مغنماً زائلاً أو عرضاً فانياً أو كرسياً مزوراً .

كلا إنها دعوة متجردة لله وحده .. إنها أنقى من ماء الغمام ، وأطهر من السحابة فى سمائها ... استمع إلى تلك الآيات البينات فى سورة الشعراء :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسَلين * إذْ قَالَ لَهُمْ أخوهُمْ نُوحٌ ألاَ تَتَّقُون * إنى لَكُمْ رَسولٌ أمينٌ * فاتقوا الله وأطيعُون * وما أسئلكُمْ عليهِ مِنْ أجرٍ إنْ أجرىَ إلاّ على رَبِّ العالمين * فاتقوا الله وأطيعُون ﴾ (الشعراء : ١٠٥ ـ ١١٠)

فماذا كان جوابهم ؟ وإلى أى حدٍّ أساءوا واستكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ؟ هذا موضوع حديثنا القادم إن شاء الله تعالى .

حوار بين الحق والباطل

من يوم هبط آدم إلى الأرض والحق فى صراع مع الباطل وحوار مستمر ، وقد أخبر المولى جل شأنه بأن الباطل كان زهوقاً .. هذه حقيقة لا مرية فيها ، ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق ، وسيظل الباطل يعربد فى عرصات الدنيا حتى يتصدى له الحق فيصرعه ، فالحق أبلج والباطل لجلج .

وما أصدق قوله جل شأنه ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فَيَدْمَغُهُ فإذا هُوَ زاهِقٌ ﴾ (الأنبياء : ١٨)

ونحن الآن أمام صورة فى كتاب الله ، تصور لنا لوناً من ألوان الحوار الذى دار بين الحق والباطل . جاء الحق على لسان نبى الله نوح .. وورد الباطل على لسان قومه . فقال نوح لقومه بلسان اليقين ومنطق الحق المبين :

﴿ إنى لكُمْ نذيرٌ مُبين * أن لا تَعْبُدوا إلا اللهَ إنى أخافُ عَلَيْكُمْ عذابَ يَوْمٍ ألِيم ﴾ (هود : ٢٥ ، ٢٦)

كلمة حق ومنطق صدق ، لا يمارى فيه إلا مرضى القلوب ، الذين هاجت عقارب البغضاء فى صدورهم ، وتحركت ثعابين الحقد فى نفوسهم .

إنه الناصح الأمين يخاف عليهم عذاب يوم ما أطوله وما أهوله ، فكان مقتضى الحكمة أن يقولوا له : ونحن لك من الناصرين المؤيدين ، لكن الباطل لا يعرف حكمة ولا يهتدى سبيلاً ، إنه لا يعرف إلا العداوة والخصومة والجدال العقيم ، والمكابرة وبطر الحق وغمط الناس ، وتزييف الحقائق .. اسمع إليهم ماذا قالوا ؟

قال سبحانه حكاية عن هؤلاء : ﴿ مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتبعكَ إلاَّ الذينَ هُمْ أَراذِلُنَا بَادِى الرأى وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نظنكُمْ كاذبِينَ ﴾ (هود : ٢٧)

أربع تهم لا أساس لها من الصحة ، ولا تثبت أمام البحث والتمحيص ، ولا تصمد أمام الفكر السليم ، فنحن إذا ما قدحنا زناد الرأى ، ونخلنا مخزون الفكر ، رأينا أن كلامهم هراء .. فليست البشرية طعناً ، ما دامت تقوم على الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، فما بالك إذا كانت بشرية معصومة بالنبوة مستضيئة بنور الرسالة ، حفظ الله ظواهرها وبواطنها من التلبس بأى منهى عنه ، وأحاطها بعنايته ورعايته وصيانته .

﴿ رُسُلاً مُبشّرِين وَمُنْذِرِين لِئلا يكُون للنّاسِ على الله حجةٌ بعد الرسُلِ وكانَ اللهُ عزيزاً حكيماً ﴾ (النساء : ١٦٥)

صدقت يا ربنا .. فأنت القائل ﴿ اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه ﴾

(الأنعام : ١٢٤)

ثم هل يعيب الأنبياء أن يكونوا بشراً يتفاهم مع قومه بما يوافق النفوس السليمة والفطر المستقيمة .

ثم هل يعيب الأنبياء أن يكون أتباعهم من الفقراء الضعفاء ، إن الفقر مع الخلق الكريم ليس عيباً .. كما أن الغنى مع الانحراف الخلقى ليس فخراً ولا شرفاً .. بهذا نطق الكتاب الكريم ﴿ إنَّ أكرمكُمْ عندَ الله أتقاكُم ﴾ (الحجرات : ١٣)

تلك حقيقة الحقائق ، ومحور الارتكاز فى ميزان الأمور ، والعنصر الفعال فى الحكم على القضايا ، بل إنها حجر الزاوية والعمود الفقرى ، ودائرة الضوء فى فهم الأمور فهماً صحيحاً . فإذا ما جهل الناس تلك الحقيقة أو تناسوها وغفلوا عنها ؛ اختلت الموازين وانتكست المعايير وأصبحوا كما يقول القائل :

إذا قَلَّ مالى فما خلٌّ يُصاحبنى ... وفى الزيادةِ كل النـاسِ خلاَّنى
كَمْ مِنْ عدو لأجلِ المال صادقنى ... وكم صديق لفقد المال عادانى

إنه الشذوذ فى الرأى ، والنشاذ فى التفكير ، عندما يهال التراب على حقائق الأشياء ، فتصبح كل سيئة للغنى فى نظر الناس حسنة وكل حسنة للفقير فى نظر الناس سيئة ، فالغنى إذا كان بخيلاً قالوا عنه : إنه متزن ، وإذا كان أبكم قالوا : إنه حكيم ، وإذا كان جباناً قالوا : إنه رزين .

والفقير إذا كان كريماً قالوا : إنه متلاف ، وإذا كان فصيحاً قالوا : إنه ثرثار وإذا كان شجاعاً قالوا : إنه متهور ، وهكذا تختل الموازين فإذا أقبلت الدنيا على أحد خلعت عليه محاسن غيره ، وإذا أعرضت عنه سلبته محاسن نفسه .

المرءُ فى زمَنِ الإقبالِ كالشجرة ... والناسُ مِنْ حولها ما دامتْ الثّمرة
حتى إذَا راحَ عنها حملها انصرفوا ... وخلفوها تُقاسى الحَرَّ والغبرة

لكن الإسلام إذا حكم محكمة الصدق يضع الأمور فى نصابها ، والنقاط على حروفها ، ويسمى الأشياء بأسمائها ..انصت معى إلى هذا المشهد المهيب.

مَرَّ رجل غنىٌّ على رسول الله ﷺ فسأل الرسول أصحابه : ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : يا رسول الله هو حرىٌّ إذا قال أنْ يستمع له ، وإذا خطب أن يزوَّج ، وإذا شفع أن يشفَّع .

ثم مرَّ رجل فقير فقال الرسول لأصحابه : ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : يا رسول الله هو حرىٌّ إذا قال أن لا يستمع له ، وإذا خطب أن لا يزوَّج ، وإذا شفع لا يشفَّع .

فماذا قال ناشر الهدى ، وواسع الندى ؟ .. قال : « والذى نفسى بيده إن هذا الفقير خير من ملء الأرض مثل هذا الغنى » .

ذلك لأن الميزان الذى كان الرسول الكريم يزن به الأمور ميزان لا يختلف ولا يتخلف ، ثبت كالرواسى الشامخات ، مضىء كالشمس فى كبد السماء ، منير كالقمر فى ظلمة الليل ، إنه ميزان التقوى ، فهل يعيب الأنبياء أن يكون أتباعهم من الضعفاء والفقراء ، إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم ، ولقد بعث الله رسله بالحق لينصروا الضعفاء والفقراء ، ويأخذوا بأيديهم من غياهب الظلم ودياجير الظلمات ، وفلول الدجى إلى باذخ العلياء ، من ظلم الإنسان إلى عدل

الإسلام ، ومن جبروت الظالمين إلى رحمة القلوب المؤمنة .

﴿ إنَّ فرعونَ علا في الأرضِ وجعلَ أهلَها شيعاً يستضعفُ طائفةً منهم يذبّحُ أبناءَهم ويستحيي نساءَهم إنه كانَ من المفسدين * ونريدُ أنْ نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرضِ ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين * ونمكّنَ لهم في الأرضِ ونُري فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ (القصص : ٤ ـ ٦)

أصغ السمع لمنطق الحق ..

﴿ كذّبتْ قومُ نوحٍ المرسلين * إذ قالَ لهم أخوهم نوحٌ ألا تتقون * إني لكم رسولٌ أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجرٍ إنْ أجريَ إلا على ربِّ العالمين * فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (الشعراء : ١٠٥ ـ ١١٠)

ثم انصت إلى ما جرى على ألسنتهم من باطل . ﴿ قالوا أنؤمنُ لكَ واتبعكَ الأرذلون ﴾ (الشعراء : ١١١)

ثم استمع إلى جلال النبوة يتألق على لسان نوح .. ﴿ قالَ وما علمي بما كانوا يعملون * إنْ حسابُهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطاردِ المؤمنين * إنْ أنا إلا نذيرٌ مبين ﴾ (الشعراء ١١٢ ـ ١١٥)

ثم اعجب إلى منطق الباطل يجرى على ألسنتهم . ﴿ قالوا لئنْ لم تنتهِ يا نوحُ لتكونَنَّ من المرجومين ﴾ (الشعراء : ١١٦)

فماذا قال صاحب الرسالة العليا .. إنه لا مجال أمامه إلا أن يستنصر برافع السماء بلا عمد .. ﴿ قالَ ربِّ إنَّ قومي كذّبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجّني ومن معي من المؤمنين ﴾ (الشعراء : ١١٧ ، ١١٨)

إنه حوار يدعو إلى الدهشة بين ناصح أمين يدعوهم إلى النجاة ، وبين قوم مجادلين بالباطل يدعون إلى النار ، ولكن العاقبة للمتقين ، ولكن لا يكون العدوان إلا على الظالمين ، والحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين .

* * *

قالوا لأنبياء الله

الباطل هو الباطل مهما تنوعت أساليبه واختلفت مناهجه ، فهو دائماً يفكر بعقل عشش فيه الشيطان وباض زخرف القول وأفرخ الجدل العقيم .

قالوا لنبي الله نوح : ﴿ إنا لنراكَ في ضلالٍ مبين * قالَ يا قومِ ليس بي ضلالةٌ ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين * أبلّغكم رسالاتِ ربي وأنصحُ لكم وأعلمُ من الله ما لا تعلمون ﴾ (الأعراف : ٦٠ ـ ٦٢)

فتأمل منطق الحق وكيف يفكر بعقل رشيد ومنطق سديد .

قالوا لنوح : ﴿ ما نراكَ إلا بشراً مثلنا ﴾ (هود : ٢٧)

قال لهم : ﴿ أو عجبتم أنْ جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ (الأعراف : ٦٣)

قالوا لنوح : ﴿ ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أنْ يتفضّلَ عليكم ولو شاءَ الله لأنزلَ ملائكة ﴾ (المؤمنون : ٢٤)

فقال : ﴿ يا قومِ أرأيتم إنْ كنتُ على بينةٍ من ربي وآتاني رحمةً من عنده فعُمّيتْ عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ (هود : ٢٨)

إن البينة هي الحجة القاطعة ، والبرهان الساطع على صدق نبوته .. والرحمة هي النبوة نفسها ، فإذا خفيت عليهم تلك الرحمة لأنهم سدّوا منافذ المعرفة وضربوا ستاراً من حديد حول الفقه الرشيد ونور البصيرة ، كما قال نوح عنهم :

﴿ وإني كلما دعوتُهم لتغفرَ لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً ﴾ (نوح : ٧)

فإذا كانت تلك الرحمة قد عَميَتْ عليهم فكيف يستطيع نوح أن يلزمهم بها ، وهم لها كارهون وعنها صادون ؟ ..

لقد قالوا لنبي الرحمة الصادق المعصوم ﴿ لولا نُزِّلَ هذا القرءانُ على رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَينِ عظيمٍ ﴾ (الزخرف : ٣١)

ويعنون بهما الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف فقال الحق جل جلاله :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحمتَ ربِّكَ نحنُ قَسَمْنَا بينهم مَعيشَتَهُمْ في الحياة الدُّنيا ورفعنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بعضٍ دَرَجاتٍ لِيتخذَ بعضُهُمْ بعضاً سُخْرياً ورحمتُ ربِّكَ خيرٌ مما يجمعونَ ﴾ (الزخرف : ٣٢)

وبلغ من جرأتهم على خاتم الأنبياء أن قالوا : ألم يجد الله إلا يتيم أبي طالب ؟ فقال لهم الحق جلّ جلاله : ﴿ الله أعلَمُ حيثُ يجعلُ رِسالَتَهُ ﴾

(الأنعام : ١٢٤)

لقد وزنوا الأمور بكثافة المادة ، وتجاهلوا القيم والمبادىء والمثل .

فقال لهم الحق جل في علاه : ﴿ ولَوْلاَ أنْ يكُونَ النَّاسُ أُمةً وَاحدةً لجعلْنَا لِمنْ يكفرُ بالرحمنِ لِبُيوتِهمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ ومعارجَ عليها يَظْهرون * ولِبيوتِهِمْ أبواباً وسُرراً عليها يتكئون * وزُخْرفاً وإنْ كُلُّ ذلك لَمّا متاعُ الحياةِ الدُّنيا والآخرةُ عند ربِّكَ لِلْمُتقين ﴾ (الزخرف : ٣٣ ـ ٣٥)

قالوا لنبي الله نوح :

﴿ وَمَا نراكَ اتبعكَ إلا الذين هُمْ أراذِلُنا بَادِىَ الرأي ﴾ (هود : ٢٧)

فقال لهم : ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أسئلُكُمْ عليه مالاً إنْ أجريَ إلاّ على اللهِ وَمَا أنا بطَارِدِ الذين ءامنوا إنّهم مُلاَقُوا ربِّهمْ ولكنّي أراكم قوماً تجهلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُني مِنَ اللهِ إنْ طَرَدتُهُمْ أفلا تذكَّرُونَ ﴾ (هود : ٢٩ ، ٣٠)

﴿ قَالُوا أنؤمِنُ لَكَ واتَّبعكَ الأرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بما كَانُوا يَعْمَلُونَ * إنْ حسابُهم إلاّ على ربّي لَوْ تَشْعرونَ * وما أنا بطارِدِ المؤمنين * إنْ أنا إلاّ نذيرٌ مبينٌ ﴾ (الشعراء : ١١١ ـ ١١٥)

وهل قامت دعوات الرسل إلا على الضعفاء والفقراء ؟ إنهم الصامدون الصابرون المثابرون وعلى الواجب هم القادرون .

﴿ مِنَ المؤمنين رجالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عليه فمنهم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومنهم مَنْ ينتظرُ وَمَا بَدَّلُوا تبديلاً ﴾ (الأحزاب : ٢٣)

إن الرجولة كلمة غالية طالما اهتزت لها أعواد المنابر ، ووصل رنينها إلى أعماق القلوب ، وهي لا تقاس بالمال فالمال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، ولقد قالها أبو طالب ليلة زفاف الصادق الأمين محمد ، على العفيفة الطاهرة والناسلة الحصان خديجة بنت خويلد :

وقف أبو طالب يلقي خطبة الزواج فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وبلداً حراماً ، وجعلنا الحكام على الناس ، أما بعد .. فإن محمد بن عبد الله ابن أخي لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به براً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن كان في المال قلاً فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة.

إن الرجولة معنى كبير له مغزاه ومبناه ومرماه ، لذلك وردت في أعظم المواقف .. اسمع إلى قوله تعالى .

﴿ لمسْجِدٌ أُسِّسَ على التقوى مِنْ أوّلِ يَوْمٍ أحقُّ أنْ تقومَ فيه ، فيه رجالٌ يحبون أنْ يتطهروا ﴾ (التوبة : ١٠٨)

ثم اسمع قول الباري عز وجل :

﴿ في بُيوتٍ أذنَ اللهُ أنْ تُرفعَ ويُذْكرَ فيها اسمه يُسبِّحُ لَهُ فيها بالغُدوِّ والآصالِ * رجالٌ لا تلهيهمْ تجارةٌ ولا بيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ (النور : ٣٦ ، ٣٧)

إن أصحاب النظرات القاصرة يقيسون الرجال بمقياس المادة ، ومن هنا فقد

جاء الصناديد من قريش يقولون لصاحب الرسالة العصماء : اطرد هؤلاء الصعاليك من حولك .

فكان الجواب الذى نزل به سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُون رَبَّهُمْ بالغَدَاة والعشىّ يُريدُون وَجْهَهُ ما عليكَ مِنْ حسابِهِمْ مِنْ شَىْء وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيهِمْ مِنْ شَىْء فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالمين ﴾ (الأنعام : ٥٢)

ويوصيه بهم خيراً .

﴿ وإذا جاءكَ الذين يُؤمنون بآياتنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِه الرحمةَ ﴾ (الأنعام : ٥٤)

وجاءوا يتلقون الإجابة فوجدوها إجابة عملية ، وجدوا الصادق المعصوم قد بسط رداءه لهؤلاء النفر ، وقال : مرحباً بمن أوصانى ربى بهم خيراً .. لقد كان من هؤلاء الذين طلبوا طردهم بلال بن رباح ، الذى اشتراه الصدّيق رضى الله عنه من أمية بن خلف وأعتقه ، فكان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه إذا رأى بلالاً يقول : بلال سيدنا وأعتقه سيدنا .

فانظر إلى كرامة الرجال ومكانتهم .. وجاء اليوم الذى التقى فيه السادة من قريش بهؤلاء النفر المستضعفين ، فانتصر الحق وزهق الباطل ، وتمت كلمة ربك الحسنى على هؤلاء الصابرين المثابرين ، والعاقبة للمتقين .

* * *

قالوا لأهل الحق

كان وما زال وسيظل الحق فى صراع مع الباطل قالوا لنوح وأتباعه :

﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَينا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظنكُمْ كَاذِبين ﴾ (هود : ٢٧)

وفى صراحة ووضوح وجلاء قال الحق على لسان نوح :

﴿ وَلَا أَقولُ لَكُمْ عندى خزائنُ الله وَلَا أعلَمُ الغيبَ وَلَا أقولُ إنى مَلَكٌ وَلَا أقولُ للذين تَزْدَرى أعينُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ الله خيراً اللهُ أعلمُ بما فى أنفُسِهِمْ إنى إذاً لمنَ الظَّالمين ﴾ (هود : ٣١)

فتأمل معى البون الشاسع بين بهتان الباطل ونور الحق ، الباطل يرمى بتهم كقطع الليل المظلم ، والحق يسلط أضواءه الكاشفة الهادئة ، فتبدو غياهب الظلمات ، ويكشف زيف الباطل ، لذا فإن الإسلام الذى رفع الأنبياء جميعاً لواءه ، وعملوا فى معسكره كانت سمته الجمال والبهاء والجلال والكمال .

جميل فى صفحه .. جميل فى صبره .. جميل حتى فى هجره .

اقرأ معى هذه الآيات التى نزل بها سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء ، على سيد الكائنات .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوات والأرضَ وَمَا بينهما إلا بالحقّ وإنّ الساعةَ لآتيةٌ فاصفَحِ الصَّفْحَ الجميل ﴾ (الحجر : ٨٥)

ثم اقرأ ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ (المعارج : ٥)

ثم قفْ خاشعاً أمام قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ (المزمل : ١٠)

وكيف لا يكون ذلك كذلك وهو دين الله ، والله جميل يحب الجمال .

الحق في ثباته وقوته أشد من الجبال الشُّم والرواسى الشامخات .. والباطل فى نزقه وحمقه وطيشه كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف .

الحق عدل وحلم وإخاء ومساواة ورحمة وعظمة وإنسانية .. والباطل شر وظلام وظلم وطيش واستبداد . ألم تسمع معى إلى قول سيد الخلق وحبيب الحق « كاد الحليم أن يكون نبياً »

الحق شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .. والباطل شجرة خبيثة اجتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار .. دولة الباطل ساعة ودولة الحق دائمة حتى قيام الساعة .

لقد كانوا مع الأنبياء يقيسون الأمور بمقاييس العظمة الزائفة ، والمناصب الفانية ، فقال لهم المولى جل شأنه :

﴿ أكانَ للناسِ عَجباً أنْ أوْحَيْنَا إلى رَجلٍ منهم أنْ أنذرِ الناسَ وَبشّر الذين آمنوا أنّ لهم قَدَمَ صِدقٍ عِندَ رَبّهم قالَ الكافرونَ إنّ هذا لَساحِرٌ مُبين ﴾ (يونس : ٢)

إن منطق الباطل لا يخلو من شماتة وسوء أدب ، حتى بلغ من شماتتهم أنهم عيّروا رسول الله ﷺ بموت أولاده وقالوا : إن ذكراه ستنقطع بعد موته فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ إنّا أعطيناكَ الكَوْثَرَ * فَصَلّ لِربّكَ وَانحرْ * إنّ شانِئَكَ هُوَ الأبتَرُ ﴾ (الكوثر : ١ ـ ٣)

والشانىء هو الكاره المبغض الذى تحركت ثعابين الحقد فى قلبه وهاجت عقارب البغضاء فى نفسه .

والأبتر هو الأقطع الذى لا ذِكر له ولا وزن بين الناس .

أما النبى المصطفى فستظل ذكراه مدى الدهر أعطر من الزهر .

قال جبريل ذات يوم لمبعوث العناية الإلاهية : أتدرى يا رسول الله .. بِمَ رفع الله ذكرك ؟

قال : الله أعلم .. قال جبريل : لا يُذكر اسم الله إلا ومعه اسمك .

وهكذا نقرن بين الشهادتين فى الآذان والإقامة والتشهد ، فما من يوم ينشق فجره إلا ويتردد اسم محمد ملايين المرات على ملايين الشفاه .

ذِكراك باقيةٌ ودينُك خالدٌ   كالشمسِ تُحيّ المشرقَين طُلوعاً

وَسِعَ العقائدَ يُستضاءُ بنوره   يعلُو على ضوءِ النهارِ سُطوعاً

إن نبى الله نوحاً قال بلسان الحق : ﴿ وَلاَ أقولُ لكُمْ عندى خزائنُ الله ﴾ (هود : ٣١)

وقد قال الله تعالى لرسوله ومصطفاه محمد : ﴿ قُلْ لاَ أقولُ لكُمْ عندى خزائنُ الله وَلاَ أعلمُ الغيبَ وَلاَ أقولُ لكُمْ إنى مَلَكٌ إنْ أتبعُ إلاّ مَا يُوحَى إلىّ * قُلْ هَلْ يَستوى الأعمى والبصيرُ أفلا تتفكّرون ﴾ (الأنعام : ٥٠)

إن الأنبياء كنجوم السماء يهدون السارى فى ظلمة الليل ، إنهم كواكب الهدى وزعماء التُّقى ، جاءوا كالبحر الطهور ينساب فى أرجاء الأرض ليغسل الدنيا من أرجاسها وأدناسها وأنجاسها .

فإذا كان القوم يُحادون الله ورسوله يُعيّرون الأنبياء بأتباعهم فإن السيد الجليل محمداً ﷺ هو الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة .

جعل من عبّاد الحجر قادة للبشر .. ومن رعاة الغنم زعماء للأمم .

أليسوا هم الذين وقفوا أمام الطغاة المتجبرين ، ألم يقل أبو بكر الصديق ذات يوم لكسري كيف تتكبر على الله ، وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين مرة من صلب أبيك ومرة من رحم أمك ؟

إن الكبرياء لله وحده فهو المعز المذل ، المحيى المميت ، الضار النافع ، الخافض الرافع ، تعالى عما يقولون علواً كبيراً .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ كَذلكَ يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فأمّا الزبَدُ فيذهبُ جُفَاءً وأمّا مـا ينفعُ النّاسَ فيمْكُثُ فى الأرضِ ﴾

(الرعد : ١٧)

سماحة الحق وحماقة الباطل

﴿ كَذلكَ يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فأمّا الزبَدُ فيذهبُ جُفَاءً وأمّا ما ينفعُ النّاسَ فَيَمكُثُ فى الأرضِ ﴾ (الرعد : ١٧)

الحق ثابت ثبات الجبال لأنه صفة من صفات المولى تبارك اسمه ، والله يقول الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين .. فماذا جرى على ألسنة القوم بعدما دحض الحق حججهم الباطلة فأزهقها .

﴿ قَالُوا يا نُوحُ قَدْ جادلْتنَا فأكثرْتَ جِدَالنَا ﴾ (هود : ٣٢)

وما هذه بتهمة أن يكثر جدالهم ، مادام مقصده الأسمى وهدفه الأعلى الوصول إلى الحق ، لكنهم أرادوا أن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموا الحق وهم يعلمون .. وهذه صفة المراوغة ولغة الثعالب فبين حقائق الإسلام وأباطيل خصومه قضايا وقضايا .

قالوا لنوح : ﴿ فأكثرتَ جدَالنَا ﴾ وهذه شهادة له بالفطانة ، وهى إحدى صفات الأنبياء ، فقد اتصفوا بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة .

وهل الفطانة إلا سرعة الإدراك وحضور البديهة وقوة الحجة ، وكفى الأنبياء فخراً أنَّ الله تعالى أوجب لهم العصمة ، فحفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأى منهى عنه ، فهم معصومون بالعناية العليا مستمسكون بالحق العظيم .

وهذا خاتمهم :

قد زكّى الله تعالى عقله فقال ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ (النجم : ٢)

وزكّى لسانه فقال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ (النجم : ٣)

وزكّى شرعه فقال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم : ٤)

وزكّى مُعلّمه فقال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوى ﴾ (النجم : ٥)

وزكّى فؤاده فقال : ﴿ مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رأى ﴾ (النجم : ١١)

وزكّى بصره فقال : ﴿ مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (النجم : ١٧)

وزكّاه كله فقال : ﴿ وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم ﴾ (القلم : ٤)

وزكّى رسالته فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالمين ﴾ (الأنبياء : ١٠٧)

إن الأنبياء هم الصفوة من عباد الله الذين يُبلّغون رسالات الله ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً .

أىُّ شىء يعيب الجدل بين النبى وقومه إذا كان الهدف نبيلاً وهو الحق ؟ إنما يكون الجدل مقيتاً إذا كان المقصود إظهار الغلبة والمكابرة ، ولكنه منطق الباطل يحاول أن يشوه وجه الحقيقة ونسى أو تناسى أن الناس جميعاً لو تحولوا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن ، بسامة المحيّا .

إن الباطل مصاب بالإفلاس الفكرى لذلك قال القوم لنوح :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (هود : ٣٢)

بعدما قالوا له ولأتباعه ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِين ﴾ (هود : ٢٧)

وظنوا أن المفاضلة هى مقياس الرسالات ، كما قالوا ذلك للمستضعفين من المسلمين الذين رفع الله تعالى مكانتهم فى عليين .

فها هو ذا سلمان الفارسى يسأله أحد الناس : ابن من أنت يا سلمان ؟ ..

فيصيح سلمان بأعلى صوته : أنا ابن الإسلام .

فلما بلغت تلك المقالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه صاح كالأسد قائلاً :

وأنا ابن الإسلام .. قالها ثلاثاً .

سلمان هذا خلع عليه الصادق المعصوم وسام الشرف من الدرجة العليا ، وكان هذا الوسام فى كلمات رفيعة المستوى قال فيها النبى الكريم :

« إن الله ليرضى لرضا سلمان ويغضب لغضبه ، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان أكثر من اشتياقه إليها » .

لعمرُكَ ما الإنسانُ إلا ابـن دينـه ... فَلا تتركْ التقوَى اتكالا على النسب

فقد رفـعَ الإسلامُ سلمانَ فارسٍ ... وقد حُطَّ بالشرك النسيبُ أبو لهـب

لقد كان يوماً مشهوداً يوم وقف كبار المسلمين يتنازعون فى شأن سلمان ، وكل منهم ينسبه إلى قبيلته فيقول : سلمان منا آل كذا .

وأراد الرسول أن يحسم هذا الخلاف المفعم بعاطفة الحب النبيل والإخلاص والوفاء ، فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين « سلمان منّا آل البيت » .

إنه شرف لا يدانيه شرف ، وكرم لا يلحق به ولا يُشَقُّ له غبار .

وفى عصر الخلافة الفاروقية ، أيام عمر ولى سلمان حكم المدائن كبرى مدن بلاد فارس فماذا حدث فى إمرة سلمان .. أبى أن يتقاضى شيئاً من مال الدولة ، وأصر على أن يأكل لقمة عيشه بكدّ يمينه وعرق جبينه ، وكان يصنع المكاتل من خوص النخيل .. وقيل له : أيها الأمير تفرغ لفضّ المنازعات وحل مشاكل الرعية وتعاط من الأجر ما يقيم أودك .

فقال بلُغة الإيثار والنُّبل :

إننى أسمع إلى شكاية الناس بأذنى ، وأصنع المكاتل بيدى ، فلن أعطل لهم شكاية ولن أقف منهم موقفاً يغضب أحدهم ..ثم ماذا ؟

كان إذا باع المكاتل يقسم ثمنها ثلاثة أقسام :

قسم له ولأهل بيته .

وآخر يتصدق به على المساكين .. وثالث يعمل فيه .

هذا كله حتى لا يمد يده إلى مال المسلمين ولو كان على سبيل الأجر .

ويرحم الله أبناء هذه المدرسة الذين أطبُّوا المريض بدوائهم ، وأمّنوا الخائف فى رحابهم ، وقرأوا على الدنيا كتاب جهادهم ، إنها مدرسة كان عميدها المصطفى ﷺ الذى عُرف قبل البعثة بالصادق الأمين .. وكفى بالصدق والأمانة خلقاً .

أليس هو القائل : « إنّ الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال » .

ثم أليس هو الذى مَرَّ ذات يوم بقتيل فسأل : من الذى قتله ؟ قالوا : يا رسول الله إنه لص سطا على غنم القوم فخرج عليه كلب الغنم فقتله . فقال سيد الخلق وحبيب الحق فى شأن هذا القتيل ثلاث كلمات .. قال : « قتل نفسه ، وأضاع ديته ، وكان الكلب خيراً منه » .

صدقتَ يا سيدى يا رسول الله .. فأنت القائل : « مَنْ بات كالاًّ من عمل يده بات مغفوراً له » وأنت القائل : « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون » ، وأنت القائل : « من احتكر أربعين يوماً يريد الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه » .

ولما رأيت يد أحد الصحابة وقد تأثرت من العمل والكدّ ، خلعت عليه هذا الوسام الرفيع فقلت : « إنها يد لا تمسها النار » .

إن هؤلاء المستضعفين الذين سخر منهم الملأ هم الذين غيّروا وجه التاريخ وأقاموا دولة الإسلام باذخة الذرى مشرئبة الأعناق تبدد غياهب الظلمات وتبعث الحياة فى الأموات .

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾
(الشورى : ٥٢)

الباطل والإفلاس الفكرى

عندما يصطدم الباطل بالحقائق وينعكس عليه ضوء الحق لا يستطيع أن يصمد تحت وهج الشمس ، لأنه تعوّد أن يعيش، كالخفاش لا يرى الأجسام البينة للناس فى ضوء النهار ، لما ظهر الحق جلياً أمام قوم نوح عليه السلام ولم يبق أمامهم حجة صحيحة يعلنونها قالوا :

﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ (هود : ٣٢)

ثم لجأوا إلى منطق التهديد بعدما لجّوا فى عتوّ ونفور ، وظلوا فى غيّهم يترددون وفى ضلالهم يعمهون قالوا :

﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ (هود : ٣٢)

إذن فهل كان ما قاله غير صدق ، لقد قالوا له وللمؤمنين معه ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ (هود : ٢٧)

وما جرّبوا على نوح كذباً ، ولماذا يكذب وهو الذى قال لهم من قبل ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله ﴾ (هود : ٢٩)

ولم يسْعَ وراء جاه أو سلطان ، بل إن الذين كانوا حوله من ضعفاء الناس كأتباع الأنبياء فلماذا يكذب ؟ فماذا قال لهم نوح ؟

قال بمنطق الحق المبين : ﴿ إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾
(هود : ٣٣)

إنها قوة الحق تسرى كأنها نسيم السَّحَر ، وتترقرق كأنها هدير الماء ، وتغرد كأنها الأطيار على أغصان الأشجار ، وتفوح عبيراً كأنها باقات الأزهار **﴿ إنما يأتيكُمْ به اللهُ إنْ شاءَ ﴾** .

تسليم مطلق وتفويض صريح لصاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق .

﴿ وقُلْ للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيبُ السماوات والأرضِ وإليه يُرجعُ الأمرُ كلُّه فاعبُدْهُ وتوكَّلْ عليه وما ربُّكَ بغافلٍ عمَّا تعملون ﴾ (هود : ١٢١ ـ ١٢٣)

لقد بُعثَ الأنبياء بالهدى ودين الحق مبشّرين ومنذرين ليُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، والتقوا بقوم غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، قساة القلوب ، عبدوا الذهب والفضة وسجدوا لطواغيت البشر .

جاء الأنبياء فحطموا الطغيان فى كل أشكاله ، فنبى الله نوح حطم جبهة الأصنام التى قال فيها القرآن الكريم حكاية على لسان نوح :

﴿ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتَكُمْ ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويَعوقَ ونَسْراً * وقَدْ أضلُّوا كثيراً ﴾ (نوح : ٢٣ ، ٢٤)

وجاء إبراهيم ليحطم كبرياء النمرود بن كنعان الذى قال : أنا أحيى وأميت قال له الخليل **﴿ فإنَّ الله يأتى بالشمس منَ المشرقِ فأتِ بها منَ المغرب فبُهتَ الذى كفَرَ والله لا يهدى القَوْمَ الظالمين ﴾** (البقرة : ٢٥٨)

فاعجب معى لهذا الجدل العقيم الذى ادعى فيه إنسان غرَّه جهله ، وغرَّهُ كبرياؤه وصلفه وطيشه وحمقه ، فنسى نفسه وجاء باثنين من الرعية فحكم عليهما بالإعدام ، ثم خفف الحكم عن أحدهما فقال : لقد أحييته ، ونفذ الحكم فى الآخر فقال : لقد أمتُّه ، ونسى أن الإحياء والإماتة لا يملكهما إلا الواحد الديان .. ولو سأل نفسه : هل هو الذى أحيا نفسه ؟ أو هل يستطيع أن يدرأ الموت عن نفسه ؟ لوجد نفسه كذبابة وهنانة تحاول أن تحجب بجناحيها ضوء الشمس أو نور القمر ، ولوجد نفسه غلاماً أراد أن يقهر البحر فرماه بحجر.

مَا يضُرُّ البحرَ أمسى زَاخراً ... إنْ رمَى فيه غلامٌ بحجر

إن العظمة لله وحده والكبرياء له وحده ، يقول تعالى فى الحديث القدسى الجليل « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى فيهما أدخلته نارى » .

ولى فى فناءِ الخلقِ أكبرُ عبرةٍ ... لمن كانَ فى بحرِ الحقيقةِ راقى
شخوصٌ وأشكالٌ تمرُّ وتنقضى ... فتفنى جميعاً والمهيمنُ باقى

وجاء لوط عليه السلام ليحطم الطغيان الاجتماعى ، اسمع إليه يقول لقومه : **﴿ أئنكُمْ لتأتونَ الرجالَ وتقطعونَ السبيلَ وتأتونَ فى ناديكُمُ المنكرَ ﴾**

(العنكبوت : ٢٩)

واسمع إليه يقول : **﴿ أتأتونَ الذُّكْرانَ منَ العالمين * وتَذَرُونَ ما خلقَ لكُمْ ربُّكُمْ منْ أزواجكُمْ بَلْ أنتم قوْمٌ عادُون ﴾** (الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦)

ولقد ظهرت آية الله الكبرى فى هذا العصر الذى نعيشه ، فقد فشى فى المجتمعات التى زعمت أنها أصحاب المدنية ، ظهر فيها مرض خطير يسمى الإيدز .. وهو ناشىء عن الشذوذ الجنسى الذى حرمه الله تحريماً قاطعاً ، وهذا وباء خطير يسرى سريان السُّم فى الأحشاء ، وسريان النار فى الهشيم ، لا يبقى ولا يذر ، وهذا المرض قد حذر منه النبى ﷺ عندما قال :

« لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشى فيهم الأوجاع التى لم تكُنْ فى أسلافهم » ، وقال : « ما شاع الربا والزنا فى قوم إلا أحلوا بأنفسهم غضب الله » .

﴿ يا أيها الذين آمنوا استَجيبوا لله وللرسول إذا دَعاكُم لما يحييكُمْ واعلموا أنَّ الله يحولُ بَيْنَ المرءِ وقلبه وأنه إليه تُحْشَرُونَ * واتقوا فتنةً لا تُصيبنَّ الذين ظَلَموا منكم خاصةً واعلموا أنَّ الله شديدُ العقاب ﴾ (الأنفال : ٢٤ ، ٢٥)

أى مدنية تلك التى تقنن الفاحشة التى ليس من ورائها إلا التخريب والتدمير ؟

فما أعظمك يا رسول الله ، وما أحلمك وما أكرمك .. فقد جئتنا بالحجة

البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ..

لقد بيّنتَ لنا سنن الهدى والرشاد ، والعفاف والسداد ، وحذرتنا من اتباع أهل الباطل الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴿ وإذا قيلَ لهمْ لا تُفسدُوا فى الأرض قالُوا إنما نحنُ مُصلحُونَ * ألا إنهمْ هُمُ المفسدُونَ ولكنْ لا يَشعُرونَ ﴾ (البقرة : ١١ ، ١٢)

ما أعظمك وقد قلت ذات يوم : « ستكون فتن » قال علىٌّ : فما المخرج منها يا رسول الله ؟

فقلت بعبارة وجيزة المبنى ، عظيمة المعنى والمغزى والمرمى : « كتابُ الله » .

أشرقَ النورُ فى العوالمِ لما ... بشّرتْهَا بأحمدَ الأنبياءُ
جاء للناسِ والسرائرُ فوضى ... لم يؤلّف شتاتهنّ لواءُ
وحِمَى اللهِ مُستباحٌ وشرعه ... والحقُّ والصوابُ وراءُ
ولجبريلَ جيئةٌ وذهابُ ... وهبوطٌ إلى الثرى وارتقاءُ
نسختَ سنةَ النبيين والرسل ... كما ينسخُ الضياءَ الضياءُ

نعم يا رسول الله « كتاب الله مَنْ علم علْمه سبق ، ومَنْ قال به صدق ، ومَنْ حكم به عدل ، ومَنْ دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تملّه الأتقياء » .

فاللهم انفعنا به آمين

* * *

أعلام الهدى

بُعثَ أنبياء الله مُبشّرين ومنذرين ، فكانوا كالغيث أينما وقع نفع ، فها هو ذا شيخ الأنبياء نوح ، لمّا اشتد عليه أذى قومه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق وقالوا له :

﴿ فأْتنَا بما تَعدُنَا إنْ كُنتَ منَ الصادقينَ * قالَ إنما يأتيكُمْ به الله إنْ شاءَ وما أنتم بمعْجزينَ ﴾ (هود : ٣٢ ، ٣٣)

نعم وهل يستطيع أحد على وجه الأرض أيا كانت قوته ، وأيا كان سلطانه أن يعجز الله أو يفرّ من قضائه ؟

قال القرآن الكريم على لسان الجن : ﴿ وأنّا ظننّا أنْ لنْ نُعجزَ الله فى الأرضِ ولَنْ نُعجزَهُ هربًا ﴾ (الجن : ١٢)

وقال سبحانه ﴿ ولاَ يحسبَنّ الذين كفروا سبقُوا إنهم لا يُعجزُون ﴾

(الأنفال : ٥٩)

سبحانك ربى .. الوجود ملكك ، والقضاء حكمتك ، وكل الكائنات طوع إرادتك .. علوت فقهرت ، وملكت فقدرت ، وبطنت فخبرت ، حكمت على من سواك بالفناء ، ووجب لذاتك البقاء .

﴿ كلُّ مَنْ عليها فانٍ * ويبقى وجهُ ربّكَ ذُو الجلالِ والإكرام ﴾

(الرحمن : ٢٦ ، ٢٧)

﴿ لا إلهَ إلا هُوَ كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وإليهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(القصص : ٨٨)

وقال نوح لقومه بعد ذلك وقد رفضوا نصحه وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً .. قال لهم والحال هكذا :

﴿ وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إنْ أردتُ أنْ أنصحَ لكُمْ ﴾ (هود : ٣٤)

إذ كيف ينفع النصح قوماً سدُّوا جميع منافذ المعرفة ، وجعلوا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ﴿ وَإنْ تَدْعُهُمْ إلى الهدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إذاً أبداً ﴾

(الكهف : ٥٧)

وقمة المأساة أن تغطى معاول الهدم على عوامل البناء ، يفشو التفسخ الأخلاقى والانحلال الاجتماعى ، ويضعف وازع الدين فى النفوس .. عندئذ تأتى النتائج بأوخم العواقب ، وكم أقف حزيناً كل الحزن عندما أستمع إلى قوله تعالى على لسان نبيه صالح وهو يقول لقومه : ﴿ لَقَدْ أبلغتكُمْ رِسَالَةَ ربى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (الأعراف : ٧٩)

فعندما يقف القوم من الناصحين هذا الموقف فكبِّر عليهم أربعاً لوفاتهم .. إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمَّهم الله بعذاب من عنده .

يقول تعالى فى الحديث القدسى الجليل :

« اشتد غضبى على مَنْ ظلم مَنْ لم يجد له ناصراً غيرى ، واشتد غضبى على مَنْ وجد مظلوماً فقدر أن ينصره فلم ينصره » .

ويقول لموسى : « يا موسى ما أحبنى مَنْ أحب الدنيا ، فإنه لا يسع قلبٌ واحد حبى وحبها أبداً .. يا موسى ما خافنى من خاف الخلق ، وما توكل علىَّ من خاف فوات الرزق .. وعزتى وجلالى ، ما توكل علىَّ عبد إلا كفيته ، وبيدى مفاتح الملك والملكوت ، وما اعتصم بى عبد إلا أدخلته الجنة ، وكفيته كل مهمة ، ومن اعتصم بغيرى أسخت الأرض من تحته ، وقطعت الأسباب من فوقه ، ولا أبالى كيف أهلكته .

يا موسى خمس كلمات إنْ عملْتَ بهن نفعك العلم كله وإلا لم ينفعك شيء منه :

الأولى : كُنْ واثقاً من رزق مضمون لك ما دامت خزائنى مملوءة ، وخزائنى مملوءة لا تنفد .

والثانية : لا تخَفْ ذا سلطان ما دام سلطانى باقياً ، وسلطانى دائم لا يزول أبداً .

والثالثة : لا ترَ عيب غيرك ، ما دام فيك عيبٌ ، والمرء لا يخلو من عيب أبداً .

والرابعة : لا تدع محاربة الشيطان ما دام روحك فى بدنك ، فإنه لا يدع محاربتك أبداً .

والخامسة : لا تأمن مكرى حتى ترى نفسك فى الجنة ، وفى الجنة أصاب آدمَ ما أصاب ، فلا تأمن مكرى أبداً .

والمراد بالمكر هنا الانتقام والغضب ، أما المكر من العبد فهو الخداع والمراوغة .

قال تعالى : ﴿ ومكَرُوا مكْراً وَمَكَرْنَا مكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ، فانظُرْ كيْفَ كانَ عَاقِبةُ مكْرِهِمْ أنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أجمعين ﴾ (النمل : ٥٠ ، ٥١)

ماذا قال نوح لقومه بعد ذلك ؟

قال : ﴿ إنْ كانَ اللهُ يريدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وإليهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (هود : ٣٤)

والمراد بالإغـواء هنا الإهلاك الذى يأتى نكالاً من الله لمن غـوى وتنكَّب الطريق وحاد عن الصراط السوى ، فقد اقتضت حكمته أن يمهل ولا يهمل .

قال ﷺ : « إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله لَيملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته ، اقرأوا إن شئتم ﴿ وَكَـذَلكَ أخذُ رَبِّكَ إذا أخذَ القُرَى وَهِىَ ظَالمةٌ إنَّ أخذَهُ أليمٌ شَديدٌ ﴾ (هود : ١٠٢)

﴿ فَلْيحْذرِ الذينَ يخالفونَ عَنْ أمرِهِ أنْ تُصِيبَهُمْ فتنةٌ أوْ يُصيبَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ ﴾

(النور : ٦٣)

لقد بعث الله الأنبياء بالهدى ودين الحق ليخرجوا العباد من عبادة الأوثان أياً كان شكلها أو نوعها سواء أكانت بشراً أو حجراً .

﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ (الأنبياء : ٩٨ ، ٩٩)

ليخرجوا الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده ، ومن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

جاء الأنبياء فحطموا قواعد الطغيان فى كل أشكاله ، فها هو ذا نبى الله شعيب يقول لقومه ، يريد إصلاح الاقتصاد والقضاء على طغيان المادة : ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ (الشعراء : ١٨١ ـ ١٨٣)

وها هو ذا نبى الله موسى يضرب الطغيان السياسى ، وقد قال رجل نسى نفسه ونسى ربه ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ (غافر : ٢٩)

إنه منطق الفراعنة .. ثم يزداد لنفسه نسياناً ، وعلى ربه تمرداً وطغياناً فيقول : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (النازعات : ٢٤)

ثم يتمرغ فى أوحال الظلم وفى حمأة الظلمات فيقول : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ (القصص : ٣٨)

ولا أحد أصبر على سمع الله من الله ، إنه يسمع كل هذا ومع ذلك يقول لموسى وهارون :

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى * اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (طه : ٤٢ ـ ٤٤)

إلهنا .. ما أحلمك ، ما أكرمك ، ما أعظمك ، أنت رب المستضعفين ، وولى المتقين ، وناصر المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

ربنا ما أحلمك

لما قرأ قتادة رضى الله عنه قول الله تعالى لموسى وهارون على نبينا وعليهما الصلاة والسلام : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى * قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾ (طه : ٤٣ ـ ٤٦)

قال قتادة : يا ربنا ما أحلمك ، إذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال :

﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (النازعات : ٢٤)

فكيف يكون حلمك بعبد قال : سبحان ربى الأعلى ؟

وإذا كان هذا عطفك بفرعون الذى قال ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ (القصص : ٣٨)

فكيف يكون عطفك بعبد قال : لا إله إلا الله ؟

أحمدك على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك .. أهل ذكرك ، أهل عبادتك ، أهل طاعتك ، أهل محبتك ، أهل شكرك ، أهل زيادتك ، أهل معصيتك لا تقنطهم من رحمتك ، إن تابوا إليك فأنت حبيبهم ، فإنك تحب التوابين وتحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنت طبيبهم تبتليهم بالمصائب ، لتطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندك بعشر أمثالها وتزيد ، والسيئة بمثلها وتعفو ، وأنت أرأف بعبادك من الأم بولدها .

يَا مَنْ له عِلْمُ الغيوبَ ووصفُه — سَتْرُ العيوبِ وكل ذاك سماحُ
أخفيتَ ذنبَ العبدِ عن كُلِّ الورى — كرماً فليس عليه ثَمَّ جُنَاحُ
منك التكرُّم والتفضُّل والرِّضَا — أنتَ الإلهُ المنعمُ الفتَّاحُ

لقد تخرج الأنبياء فى تلك الرحاب الطاهرة فى ساحات الوحى المباركة ، فتخلقوا بأخلاق أرق من النسيم ، وأنضر من صفحة الروض الوسيم .

تَعالَ معى لتسمع وترى بماذا كانوا يقابلون الحماقة وسفاهة القول .

﴿ لقد أرسلنا نُوحاً إلى قَوْمِه فقالَ : يَا قَوْمِ اعبدُوا الله مَا لكُمْ مِنْ إله غيره إنى أخافُ عَليكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف : ٥٩)

فماذا قالوا له ؟

﴿ قَالَ الملأُ مِنْ قَوْمِه : إنا لنَراكَ فى ضَلالٍ مُبِين ﴾ (الأعراف : ٦٠)

فبأى شىء أجاب ؟

لقد أجاب إجابة كالروح تحيى الموات ، وكالنور يبدد غياهب الظلمات ، فيها الهدى كضوء الفجر ، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ليسَ بى ضَلالةٌ ولكنّى رسولٌ مِنْ رَبِّ العالمين * أبلغكُمْ رِسَالاتِ ربى وأنْصَحُ لكُمْ وأعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾
(الأعراف : ٦١ ، ٦٢)

فاعجب معى فإن المقام يثير كوامن الشجن ، تنخلع له القلوب ، وتنفطر من هوله الأكباد .

اقرأ معى قوله تعالى ﴿ أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ (هود : ٣٥)

أى بل أيقولون افتراه ، كما يقول أهل اللغة إن « أم » بمعنى بل والهمزة .

وأى شىء فى كلام نوح يدعو إلى الافتراء ، إنه يأمرهم بعبادة الله وحده ، ويخاف عليهم عذاب يوم عظيم ، وهو رسول من رب العالمين يبلِّغهم رسالات الله ، وما جربوا عليه كذباً ، كما أن الصدق من أخص خصائص الأنبياء ، فإذا كانوا لا يكذبون على الناس فكيف يكذبون على الله ؟

إنه ينصح لهم ، فهل يُرمَى الناصح الأمين بالافتراء .

إن هذا هو الإسقاط بعينه ، كما يقول علماء النفس : يرمون الناس بما فيهم من داء عضال ، وينسلُّون كما تنسلُّ الشعرة من العجين .

وذلك كما جاء فى قوله جَلَّ شأنه :

﴿ وَإذْ لم يَهْتَدُوا به فَسَيَقُولُونَ هَذَا إفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (الأحقاف : ١١)

فبأىِّ شىء كان جواب نوح على ما ادعوه من افترائه ، انصت يا أخى فى خشوع إلى هذا الأدب الرفيع ، والسمو السامق ، لقد أجاب بكلمات أطهر من السحابة فى سمائها ، وأنصع من ماء الغمام .

﴿ قُلْ إنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إجْرَامِي وَأنَا بَرِيءٌ مما تُجْرِمُونَ ﴾ (هود : ٣٥)

إن المسئولية فردية ﴿ مَنْ اهتَدَى فإنما يَهْتَدِى لِنفْسِه وَمَنْ ضَلَّ فَإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيها وَلاَ تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الإسراء : ١٥)

﴿ كُلُّ امرىءٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (الطور : ٢١)

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر : ٣٨)

إن الأنبياء كانوا يداوون الجراح الدامية بتنسُّم الروحانيات الصافية ، كانوا كالنسيم المترسل يدفع الشراع دون أن يغرق الفُلْك .. وكالنار الهادئة تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

يقول أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، صلوات ربى وسلامه عليه : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » .

ويقول : « ليس شىء فى الميزان أثقل من حسن الخلق » .

صدقت يا سيدى يا رسول الله .. ويرحم الله قائل هذه الأبيات ..

لا تحسبنَّ العلم ينفعُ وحده — مالم يتوَّج ربه بخلاق
فإذا رُزقت محمودة — فقد اصطفاك مقسم الأرزاق
الأم مدرسة إذا أعددتها — أعددتَ شعباً طيِّبَ الأعراق

لقد كان الأنبياء يرتفعون بالنفوس من مدارج النمال فى مدابِّها ، إلى

مسابح الأفلاك فى أبراجها .. كان الحلم رائدهم والعلم حليفهم .

وها هو ذا نبى الله هود يُتلَى بسفاهة القوم فيجيب إجابة كأنها أكاليل الزهور أو هالات النور أو باقات العطور أو كنوز الدُّرّ المنثور .

وها هو ذا القرآن الكريم فى جلاله وجماله يُذكِّرنا بما دار بين هود وقومه .

﴿ وإلى عَادٍ أخاهُمْ هُوداً قالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ أفَلا تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف : ٦٥)

فماذا قالوا له ؟ .

﴿ قالَ المَلأُ الذينَ كفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إنا لَنَراكَ فى سَفاهَةٍ وإنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الكاذِبينَ ﴾ (الأعراف : ٦٦)

فبأىِّ شىء أجاب هود ؟ وهو خريج جامعة الأنبياء .

﴿ قالَ : يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ولَكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالمِين * أُبلِّغُكُمْ رِسَالاتِ ربى وأنَا لَكُمْ ناصِحٌ أمِين ﴾ (الأعراف : ٦٧ ، ٦٨)

فإذا كان الناصحون الأمناء يُرْمَوْنَ مرة بالضلالة ، وأخرى بالكذب ، وثالثة بالسفه ، ورابعة بالجنون ، وخامسة بالسحر .

﴿ كَذَلِكَ مَا أتى الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أوْ مَجْنُونٌ * أتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (الذاريات : ٥٢ ، ٥٣)

إذا كان هذا القول قد تردد على ألسنة القوم ، حتى بعد إظهار الآيات الكونية والمعجزات وخوارق العادات .

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ * وإنْ يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ * وكَذَّبُوا واتَّبَعُوا أهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أمْرٍ مُسْتَقِرٌ ﴾ (القمر : ١ ـ ٣)

إذا كانت هذه أحوال القوم مع الأنبياء فأَوْلَى بالدعاة إلى الله أن يكونوا فى حلم وصبر ، وتجلُّد وخلق ورضا ، وتسليم وتفويض إلى رب العالمين لتسير سفينة النجاة فى جو معتدل .

والله الموفق إلى سواء الصراط

الناصحون الأمناء

إنهم أنبياء الله مصابيح الهدى ، تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء ، إنهم الذين قادوا مواكب الهدى ، وحملوا مشاعل الحق ، فارتقوا بالبشرية من حضيض الغبراء إلى باذخ العلياء ، وأخرجوا الناس من فلول الدجى وغياهب الظلمات بإذن ربهم إلى روضات الجنات .

إنهم الذين علَّموا المتعلمين ، وبعثوا الأمل إلى قلوب اليائسين ، وقادوا سفينة العالم الحائرة فى خضم الخبط ، ومعترك الأمواج إلى مرفأ الأمان ، إلى شاطىء النجاة ، إلى عناية الله رب العالمين .

إنهم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ أولَئكَ الذينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه ﴾ (الأنعام : ٩٠)

إنهم الذين علَّمونا الثبات على المبدأ والتصدى للباطل ، أيّاً كانت عُدَّته ومهما بلغ عنفوانه ، أو ما تذكر يوم اجتمعت جحافل الشر أمام بيت رسول الله ﷺ ليلة الهجرة ، وعمرو بن هشام يمر بالفتية من قريش ليلاً يحذرهم ويقول : إياكم أن يفوتكم محمد .. ورسول الله داخل بيته يرد بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : « لأنجُونَّ منك يا عدو الله » .

إنه محمد الذى علَّم البشرية الرجولة الحقة ، ثبت ثبات الرواسى ، وصمد صمود الجبال .

كان بين الناس رجلاً ... وبين الرجال بطلاً ... وبين الأبطال مثلاً .

عزّ على نفسه أن يقول له عمه أبو طالب : يا ابن أخى اترك هؤلاء القوم وشأنهم ، وحينئذ زأر النبى ﷺ زئير الأسود فى بطون الغاب وأقسم :

« يا عمّ والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

عندئذ تحركت النخوة فى نفس أبى طالب فقال : يا ابن أخى قُلْ ما شئت فوالله لا أُسلمكَ إليهم أبداً ثم أنشد :

والله لَنْ يصِلُوا إليكَ بجمعهِمْ ... حتى أُوسَّد فى التراب دفينا

ولقد علمْتُ بأن دينَ محمدٍ ... من خيرِ أديانِ البرية دينا

ليعلم أهل الحق أن الباطل لن يتخلى عن صراعه مع الحق ، لكن ليكونوا على يقين بأن العاقبة للمتقين .

﴿ كَذَلِكَ يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فَأمّا الزبَدُ فيذهبُ جُفَاءً وَأمّا ما ينفعُ النّاسَ فيمكُثُ فى الأرضِ كذَلِكَ يضربُ اللهُ الأمثالَ ﴾ (الرعد : ١٧)

وإذا كان مولانا تبارك وتعالى قد أمرنا أن نقتدى بالناصحين الأمناء ، فإن القدوة هى الأساس الأول فى منهج التربية الإسلامية ، وقد قام الأنبياء بتبليغ رسالات الله ، فكانوا هم القدوة والمثل الأعلى وقد نعى الله تعالى على قوم أصيبوا بانفصال شبكى بين القول والعمل فقال سبحانه : ﴿ أتأمُرونَ النّاس بالبر وتَنسَوْنَ أنفسكُمْ وأنتم تتْلُونَ الكِتَابَ أفَلا تعقِلُونَ ﴾ (البقرة : ٤٤)

وجميلٌ أن يقول أحد الحكماء :

يا واعظَ الناس قد أصبحْتَ متّهماً ... إذا عِبْتَ منهم أموراً أنت تأتيها

تعيبُ دنيا وناساً عاقلين لها ... وأنت أكثر منهم رغبةً فيها

وها هو ذا خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام يقول لقومه :

﴿ وَمَا أُريدُ أنْ أخالفكُمْ إلى ما أنهاكُم عنْهُ إنْ أُريدُ إلاّ الإصلاحَ ما استطعْتُ وَمَا توْفيقى إلاّ بالله علَيْهِ توَكّلْتُ وإليهِ أُنيبُ ﴾ (هود : ٨٨)

وقد ضرب خاتم الأنبياء المثل الرفيع ، والقدوة العالية لأصحابه فى حياته كلها ، أو ما علمت أنه ﷺ وهو مع بعض أصحابه وقد حضر وقت الغداء ، وكان معهم شاة .

قال أحدهم : أنا علىَّ ذبحها .

وقال الثانى : وأنا علىَّ سلخها .

وقال الثالث : وأنا علىَّ طبخها .

فهل يجلس الرسول ينتظر أن يقدم له الطعام دون أن يشاركهم العمل .. أو ما علمت ماذا قال وقتها ؟ ..

لقد قالها بصراحة ووضوح : « وأنا علىَّ جَمْعُ الحطب » .

فعزّ على الصحابة أن يروا أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، عزّ عليهم أن يروه يجمع الحطب ولكنه بصرامة وقوة حسم الموقف وقال :

« والله لا أجلس وأنتم تعملون ، إن الله يكره من عبده أن يكون متميزاً على إخوانه » .

إنه مشهد بسيط ولكنه فيه أعماق البحار ، فيه القدرة والمثل .

إنها المدرسة المحمدية فى أرفع مبانيها وأجلى معانيها .

﴿ لَقَدْ كَانَ لكُمْ فى رسُولِ الله أسْوةٌ حَسَنَةٌ لمنْ كَانَ يَرْجُو الله واليَوْمَ الآخرَ وذَكَرَ الله كثيراً ﴾ (الأحزاب : ٢١)

إنها القدوة التى خاطب الله بها الجماعة المؤمنة خطاباً فيه حَسْمٌ وعزم وقوة وصرامة .

﴿ يَا أيها الذين آمنوا لم تقُولُون مَا لاَ تفْعلُونَ * كبُرَ مقْتاً عنْدَ الله أنْ تقُولُوا مَا لاَ تفْعلُونَ ﴾ (الصف : ٢ ، ٣)

وقِفْ كثيراً عند هذين اللفظين .

(لِمَ) استفهام تسيل له الكبد مرارة ، وينفطر له الفؤاد جوًى .

ثم قفْ عند (كَبُرَ مَقْتاً) إنها كلمة تنخلع لها القلوب أو تكاد الجبال تخر لها هداً . إنه خطاب موجه للجماعة المؤمنة التى أمرنا الله أن نقتدى بها فى قوله :

﴿ مُحمَّدٌ رَسُولُ الله والذين مَعَهُ أشدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بينهم تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يبتغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوانا سِيمَاهُمْ فى وُجوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُود ﴾
(الفتح : ٢٩)

إنها القدوة التى سار فى هديها ونسج على منوالها وتأسّى بطريقها أصحاب الرسول الكريم .

أو ما سمعت إلى عمر بن الخطاب وهو يسعى على امرأة عجوز عمياء فى خيمة وفى ضاحية من ضواحى المدينة ، أيام خلافة الصدّيق رضى الله عنه .. يأتيها عمر بعد صلاة الفجر يسابق الطيور فى البكور ، ويسرع إليها قبل أن تبرز الغزالة من خدرها ، فيكنس خيمتها ويرشها ويحضر لها الطعام ، ثم يقرؤها السلام وينصرف .

وذات يوم ذهب كعادته ليقوم بهذا الواجب فوجد من سبقه إليها فاختبأ له ، فإذا هو خليفة رسول الله ـ أبو بكر ـ رضى الله عنه فقال له عمر : أنت يا خليفة رسول الله ما سابقتك إلى خير إلا سبقتنى .

* * *

على طريق النور والهدى

إنه طريق الأنبياء الذين قال الله فى شأن خاتمهم :

﴿ يَا أيها النبىُّ إنَّا أرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إلى الله بإذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً * وَبَشِّرِ المؤمنِينَ بأنَّ لهمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً * وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمنافقِينَ وَدَعْ أذَاهُمْ وَتوكَّلْ على اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٨)

إن هؤلاء الدعاة إلى الله الذين حقّ فيهم قوله تعالى :

﴿ الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أحَداً إلا الله وَكَفَى بالله حسِيباً ﴾ (الأحزاب : ٣٩)

إنهم الذين سلكوا الصراط المستقيم ، والمنهج السليم فى الدعوة إلى الله ، وقفوا أمام جيوش الباطل ، فجادلوهم بالحكمة والموعظة الحسنة لأنهم يعلمون أن الحق كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

كان أهل الباطل يرمونهم بالأحجار ، فكانوا هم كالأشجار يرمونهم بأطيب الثمار . وإذا أردنا أن نضرب الأمثال على ذلك فلنسجل هذه الصور فى حياة الأنبياء .

بماذا أمر نوح قومه بعد توحيد الله وتثبيت العقيدة ؟

استمع معي إلى قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إنه كَانَ غَفَّاراً * يُرسل السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيمددكم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيجعلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيجعلْ لَكُمْ أنهَاراً ﴾ (نوح : ١٠ _ ١٢)

فإذا ما وقفنا أمام هذا المثل الرائع في مدرسة الخليل إبراهيم ، وكيف دعا أباه فكان به بـرّاً ، وعليه مشفقاً ، وإليه محسناً .

استمع إلى هذا الأدب الجمّ على لسان إبراهيم لأبيه :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِى قَدْ جَاءَنى مِنَ العِلْمِ مَالَم يَأتِكَ فَاتَّبِعْنى أهْدِكَ صِرَاطَاً سَوِيّاً ﴾

(مريم : ٤٣)

أدب رفيع وخلق بلغ من السمو أرقى الدرجات ، لم يرم أباه بالجهل إنما خاطبه بالإشارة ، وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة .

﴿ إنى قَدْ جَاءَنى مِنَ العِلْمِ مَالم يَأتِكَ ﴾ ثم يخاطبه بلسان الرحمة والبنوة الحانية : ﴿ يَا أَبَتِ إِنى أَخَافُ أَنْ يمسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرحْمنِ فَتَكُون لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ (مريم : ٤٥)

وَقفْ كثيراً عند قوله « من الرحمن » .. ولم يَقُلْ أخاف أن يمسَّكَ عذاب من الله ، وهو لفظ الجلالة الذى يفيد المهابة والجلال ، إنما جاء بلفظ الرحمن الذى يفيد الإنعام والجمال ، كأنه يريد أن يقول له : إني أدعوك إلى توحيد مَنْ عَمّتْ رحمته الكائنات ، وهكذا كان إبراهيم مع أبيه براً ، لذلك لما دعا ابنه اسماعيل إلى الذبح تنفيذاً لأمر الله .

﴿ قَالَ : يَا أَبَتِ افعلْ مَا تُؤمَرُ ستَجِدُنى إنْ شَاءَ الله منَ الصَّابرِينَ ﴾

(الصافات : ١٠٢)

« بروا آباكم تبركم أبناؤكم ، وعفُوا تَعفُ نساؤكم » .

(البر لا يبلى ، والذنب لا يُنسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان) .

ويزداد إبراهيم مع أبيه حلماً وحناناً ، يرميه أبوه بالحجر فيرميه إبراهيم بأطيب

الثمر ، قال : ﴿ أَرَاغِبٌ أنت عَنْ ءَالِهَتى يَا إبراهيمُ لَئِنْ لَم تَنْتَهِ لأَرْجُمنَّكَ وَاهجُرْنى مَلِياً ﴾ (مريم : ٤٦)

هذه حجارة تتساقط بكثافة وغزارة لكن الثمر يأتى رطباً جنيّاً فيقول إبراهيم بلسان الأدب ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأسْتَغْفِرُ لَكَ ربى إنهُ كَانَ بى حَفِياً ﴾ (مريم : ٤٧)

إنها مدرسة الأنبياء التى تخرّج فيها المبشرون المنذرون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

كان هذا موقفه من أبيه ، أما موقفه من قومه فكان على قومه ألين من العسل ، لقد ناصبوه العداء ، ووقفوا له بالمرصاد ، فلم يزدْ على أن قال :

﴿ أفتعْبُدُونَ منْ دُون الله مَالاَ يَنفعكُمْ شيئاً وَلاَ يَضرُكُم * أفٍّ لكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ منْ دُونِ الله أفلاَ تَعْقِلُون ﴾ (الأنبياء : ٦٦ ، ٦٧)

إنه يريد أن يثير فى نفوسهم كوامن البحث والمعرفة والسعى وراء الحقيقة .

﴿ أتعْبُدُونَ مَا تنحتُونَ * والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات : ٩٥، ٩٦)

فأمطروه وابلاً من الحجارة : ﴿ قَالُوا ابنوا لَهُ بنياناً فَألْقُوه فى الجحيم ﴾

(الصافات : ٩٧)

ثم قالوا : ﴿ حَرّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهتكُمْ إنْ كُنتُم فَاعِلينَ ﴾ (الأنبياء : ٦٨)

وشكّلوا له محكمة سُدَاهَا الظلم ولُحْمَتهَا الطغيان ، أصدرت حكمها عليه بالإعدام حرقاً ، وأىُّ نار تلك التى كانت الطير تخشى أن تحوم فوقها خوفاً من اندلاع ألسنة لهيبها ، حتى لقد عبّروا هم عنها بقولهم (ألقوه فى الجحيم) .

أرأيت إلى الشر .. وهو يُكشّر عن أنيابه ؟ ثم أسمعت إلى الباطل وهو ينشب مخالبه فى أجسام أهل الحق ؟

إنه صراع العقيدة .. ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونكُمْ حَتّى يرُدُوكُم عَنْ دِينكُمْ إنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدد منكُمْ عَنْ دينه فَيمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأولَئكَ حَبِطَتْ أعمَالُهم فى الدُّنيا والآخرَةِ أولئك أصْحَابُ النَّارِ هم فيها خَالدُونَ ﴾ (البقرة : ٢١٧)

إنه الباطل .. إذا فكّر وقدّر ، ثم نظر ، ثم عبس وبَسَر ، ثم أدبر واستكبر .

إنه الصراع الدائم المستمر ما تعاقب الملوان واختلف الجديدان .

﴿ إنهمْ إنْ يَظْهَروا عليكمْ يَرْجُموكم أوْ يُعيدوكم في مِلّتِهِمْ ولَنْ تُفْلِحوا إذاً أبداً ﴾ (الكهف : ٢٠)

إنه الباطل بأسلحته .. منْ وَعْدٍ ووعيد ، وفتنة وإغراء وظلمات وشهوات .

﴿ ومَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلاّ أنْ يُؤْمِنُوا باللهِ العزيزِ الحميدِ ﴾ (البروج : ٨)

وهل يُقابَلُ الحق الأعزل بهذا العنف وذلك العذاب الأليم ؟

يقول لهم ﴿ أتعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ (الصافات : ٩٥)

فيقولون ﴿ ابنوا لهُ بُنْياناً فألْقُوهُ في الجحيمِ ﴾ (الصافات : ٩٧)

وتظهر محكمتهم الحكم عليه بالإعدام حرقاً ، والباطل إذا حكم لا يقبل لحكمه استئنافاً ، ولا نقضاً لأنه لا يعرف لغة الحوار أو الاستماع إلى الرأى الآخر ، إنه يقول بكل استبداد ﴿ مَا أُرِيكُمْ إلاّ مَا أرَى ﴾ (غافر : ٢٩)

فماذا صنع إبراهيم بعدما استمع الحكم عليه بهذه القسوة ، وهذا العتو ؟ إن جبريل قد هبط عليه وقد أوثقوه بحبالهم ، وسأله : ألك حاجة إلىّ ؟ .. قال له الخليل بلسان أمين وقلب سليم : وكيف أحتاج إليك وأنسى الذى أرسلك ؟

قال له : فاسأله يا خليل الرحمن . قال إبراهيم : حسبى بسؤالى علمه بحالى .

فكان يردد تلك الكلمة التى هى أمان الخائف : حسبى الله ونعم الوكيل ، وقذفوا به فى نارهم فأصدرت محكمة السماء حكمها بالإفراج فوراً .. ونادى مالك المُلْك على تلك النار : ﴿ يَا نَارُ كُونى بَرْداً وسَلاماً عَلَى إبراهيم ﴾ (الأنبياء : ٦٩)

فما أكلت النار فيه إلا الحبال التى أوثقوه بها ، فكان إبراهيم فيها فى جنات ونهر ، ﴿ وأرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأخْسَرِينَ ﴾ (الأنبياء : ٧٠)

* * *

الفهرس